السنن الإلهية

وأثرها في فهم الواقع والعمل الإصلاحي

السنن الإلهية

أحمد بن يوسف السيد

الطبعة الأولى

١٤٤٥ - ٢٠٢٣

منار الفكر

الترقيم الدولي:

978-625-98831-9-9



KAYABAŞI MAH. ARMAĞAN SK.
NO:1N BAŞAKŞEHİR / İSTANBUL





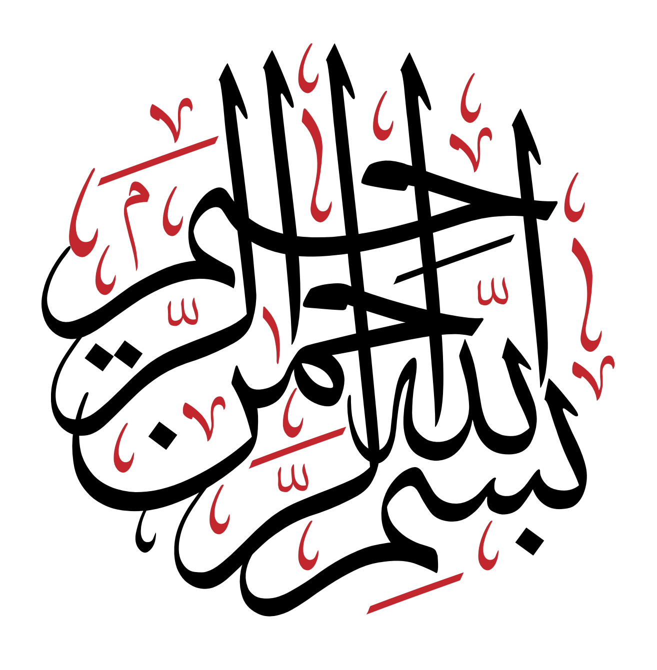


MATBAA: STEP AJANS MATBAA LTD. ŞTİ, GÖZTEPE MAH. BOSNA CAD, NO11 BAĞCILAR , İSTANBUL TELEFON :0212 446 88 46 MATBAA SERTIFIKA NO : 45522



أحمد بن يوسف السيد

منار الفكر


بسم الله الرحمن الرحيم

جدول المحتويات




مدخل إلى السنن الإلهية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه والتابعين، أما بعد:

فإننا نعيش في زمن من أشد الأزمنة التي مرت على الأمة الإسلامية على طول تاريخها، تقاسمَتْ فيه الأدواءُ جسدها، وتداعَت عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، واشتد فيه الظلم والقهر والاستضعاف وخاصة على المصلحين من الدعاة والعلماء والعاملين للإسلام، وكثرت فيه التحديات الفكرية والعقدية وتنوعت صورها، وانتشرت مشاريع هدم الثوابت الإسلامية وإعلاء المبادئ العالمانية والشيطانية، في ظل تصدُّر واسعٍ للرويبضات، واشتغال عام بالتفاهات، حتى رأينا بأعيننا السنوات الخدّاعات التي أخبر النبي ﷺ عنها بقوله: «**إن بين يدي الساعة سنين خداعة: يُصَدَّقُ فيها الكاذب، ويُكَذَّبُ فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويُخَوَّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة**» قيل: يا رسول الله وما الرويبضة؟ قال: «**المرء التافه يتكلم في أمر العامة**»[(١)].

وفي هذا الزمن الموصوف: اختلفت المواقف والآراء، واضطربت القلوب قبل الصفوف، واتسعت على المصلحين خارطةُ الثغور، واختلّ ميزان البوصلة الإصلاحية، فلم يعد يدري كثير منهم بماذا يبدؤون، ولا أيَّ ثغر من الثغور يقدمون، فضلاً عما لَحِق بكثير من الشباب من اليأس والإحباط، يُصرّح به البعض، ويكتمه آخرون؛ لأنهم يرون المآسي على رغم تصرم الأعوام تزداد

(١) أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه والبزار وأبو يعلى وغيرهم من حديث أبي هريرة، وعوف بن مالك، وأنس بن مالك رضي الله عنهم أجمعين، وقال ابن حجر ﷺ في الفتح» (١٣/ ٨٤): أخرجه أحمد وأبو يعلى والبزار وسنده جيد» والحديث حسن بمجموع وجوهه وطرقه، والله أعلم.

وتشتدّ، ولا يبصرون في الأفق البعيد أملاً، ولا في الزمن القريب فرقاناً ولا مخرجاً، خاصة وأنّ من أعظم ما يرون من المصائب: اختلاف كثير من الدعاة وطلاب العلم والعاملين وتفرقهم، حتى صار مشروع بعض التوجهات داخل الصفوف الإسلامية: الطعن في العاملين وتتبع عوراتهم بل والوقوف مع أعداء الإسلام ضدهم؛ فأين المخرج من كل ذلك؟

وفي ظل كل هذه المصائب يحتاج المؤمن أن ينتقل **من ضيق الأزمة إلى سعة الحكمة**، ومن حدود الظرف الزمني الضيق إلى فضاء السياق التاريخي الواسع، وهذا يتحقق بالوعي بالسنن الإلهية، وذلك لأنّ المرء حين لا يرى إلا مشكلات زمانه فقد يصاب باليأس والإحباط، بينما إذا لاحَظ سنة الله في الأمم والمجتمعات، فأبصر عظيم الابتلاءات التي قدّرها سبحانه على الأنبياء والرسل، ثم رأى نصر الله لهم بعد طول البلاء، ورأى إهلاكه لأعدائهم بعد الإمهال والاستدراج، ثم قرأ بيان الله سبحانه بعد ذلك بأن ما فعله بأولئك المجرمين ليس خاصاً بهم ولا متعلقاً بأعيانهم، بل هو عام مرتبط بالصفات التي كانوا عليها، وأنه سبحانه سيفعل بالمتأخرين فعْلَه بالمتقدمين المشابهين لهم، كما قال سبحانه: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ [سورة القمر:٤٣]، وأن تأييده سبحانه لأنبيائه وأوليائه ليس خاصاً بمن سمّى منهم، بل إنه سيؤيد -سبحانه- حَمَلَة دينه وأنصار ملته على مرّ الأزمان كما أيد الأولين: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الروم:٤٧]، فهكذا ينتقل المؤمن من ضيق الأزمة إلى سعة الحكمة.

وقد كان النبي ﷺ يفعل ذلك مع أصحابه، كما أخرج البخاري ومسلم من حديث خبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ رضي الله عنه قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو الله لَنَا؟ قَالَ: «**كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَالله لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»[(١)] فانظر كيف نقلهم النبي ﷺ من ضيق الأزمة إلى سعة السنن الإلهية، وإلى ملاحظة ما أجراه سبحانه على الأمم السابقة، وأن الأمر ليس جديداً في أقدار الله وحكمته، ثم أشار إلى أهمية عدم الاستعجال فالأمر متعلق بالسنن لا بالأحداث.

ومن الآيات القرآنية التي تُرسّخ هذا المعنى، قوله ﷻ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [سورة آل عمران:١٣٧]، وذلك أنها نزلت في سياق تعزية المؤمنين في مصابهم يوم أحد، وذلك بتذكيرهم بسنن الله في الأمم السالفة، بأنه سبحانه وإن أدال الكفار على المسلمين في مرحلة أو جولة فإن هذه الإدالة مؤقتة، وأن العاقبة للمتقين، وأما عاقبة المكذبين المجرمين فهي الأخذ والإهلاك، وقد أحسن الإمام أبو جعفر الطبري رحمه الله في تعليقه على الآية مستحضراً ذلك كله، فقال: (يعني بقوله تعالى ذِكْره: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ مَضتْ وسلفت منّي فيمن كان قبلكم -يا معشر أصحاب محمد وأهل الإيمان به- من نحو قوم عاد، وثمود، وقوم

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢)

هود، وقوم لوط، وغيرهم من سلاف الأمم قبلكم ﴿سُنَنٌ﴾ يعني: مَثُلات سِير بها فيهم وفيمن كذبوا به من أنبيائهم الذين أرسلوا إليهم، بإمهالي أهل التكذيب بهم واستدراجي إياهم، حتى بلغ الكتاب فيهم أجله الذي أجلتُه لإدالة أنبيائهم وأهل الإيمان بهم عليهم، ثم أحللت بهم عقوبتي، وأنزلت بساحتهم نقمي؛ فتركتُهم لمن بعدهم أمثالا وعبرا.

﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ يقول: فسيروا -أيها الظانون أنّ إدالتي من أدلتُ من أهل الشرك يوم أحد على محمد وأصحابه لغير استدراج مني لمن أشرك بي، وكفر برسلي، وخالف أمري- في ديار الأمم الذين كانوا قبلكم، ممن كان على مثل الذي عليه هؤلاء المكذبون برسولي والجاحدون وحدانيتي، فانظروا كيف كان عاقبة تكذيبهم أنبيائي، وما الذي آل إليه غِبُّ خلافهم أمري، وإنكارهم وحدانيتي؛ فتعلموا عند ذلك أنّ إدالتي من أدلتُ من المشركين على نبيي محمد وأصحابه بأحد، إنما هي استدراج وإمهال ليبلغ الكتاب أجله الذي أجلت لهم. ثم إما أن يؤول حالهم إلى مثل ما آل إليه حال الأمم الذين سلفوا قبلهم: من تعجيل العقوبة عليهم، أو ينيبوا إلى طاعتي واتباع رسولي)[1]. والشاهد من كل ذلك أنّ الوعي بسنن الله في الأمم والأقوام ينقل المؤمن من ضيق الأزمة والزمن، إلى سعة الحكمة والسنن.

على أنني أنبّه إلى أن كثيراً ممن يتناول باب السنن الإلهية بالنظر أو الاستدلال يغفل عن قضية الضبط المنهجي لفقه السنن، وهذا أدى إلى خلل كبير في تنزيل السنن على الواقع؛ وهذا الخلل في التنزيل يؤدي إلى إحدى نتيجتين: إما التفاؤل الـمُفْرِط أو اليأس والإحباط، ولذلك فقد حرصت في هذا الكتاب

(١) تفسير الطبري: (٦/ ٧٠ -٧١)

على الضوابط المنهجية وذلك على مستويين:

المستوى الأول: قواعد منهجية عامة لفهم السنن الإلهية.

المستوى الثاني: ضوابط منهجية لفهم كل سنة من السنن بعينها.

سياق الكتاب:

يأتي هذا الكتاب ضمن مجموعة من المواد التي أقدمها تحت عنوان (المنهج الإصلاحي) والتي سبق منها المواد التالية:

- كتاب بوصلة المصلح.
- كتاب المنهاج من ميراث النبوة.
- شرح المنهاج من ميراث النبوة (سلسلة مرئية مطولة وأخرى قصيرة).
- كتاب أنوار الأنبياء وسلسلة أنوار الأنبياء.
- مركزيات الإصلاح (سلسلة مرئية).
- معالجة القرآن لنفوس المصلحين (كتاب وسلسلة مرئية).

وقد اعتنيتُ بعنوان (المنهج الإصلاحي) نظراً لقناعتي أنه من أهم ما يُحتاج إليه في واقع اليوم ومشكلاته، وأن كثيراً من أزمات العاملين للإسلام في هذا الزمن إنما هي بسبب غياب المنهج أو اضطراب البوصلة، كما أن هذه العناية متفرعة عن القناعة بأن من أهم واجبات الوقت على الأمة الإسلامية: (صناعة المصلحين) وأن هذه الصناعة يجب أن تكون بمعايير تجديدية متفرعة عن رؤية منهجية شمولية، وهذا كله يوجب العمل على جانبين: نظري، وعملي، فأما النظري فبتأصيل وتحرير المنهج الإصلاحي، وأما العملي فبتربية المصلحين

وبنائهم على ضوء هذا المنهج، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا به.

هذا، وقد وافق الانطلاق في مادة السنن الإلهية تغيرات وأحداث كبرى تجري في غزة اليوم، وكنت قد قدمت محاضرتين من سلسلة السنن الإلهية قبل أحداث (**طوفان الأقصى**) ثم جاءت الأحداث واستمرت السلسلة؛ فكان الكثير من المتابعين لها يستأنس بهذا التوافق ويجد في هذه المادة عزاء وسلواناً وبصيرة؛ فالحمد لله أولاً وآخراً.

المقصود بالسنن الإلهية:

السنة في اللغة هي الطريقة والسيرة، والسنة الإلهية هي: العادة التي تتضمن أن يفعل الله سبحانه في الأمر الثاني نظير ما فعله في الأمر الأول، كما ذكر ابن تيمية رحمه الله[١]، وقال أيضاً: (سنته: عادته التي يسوي فيها بين الشيء وبين نظيره الماضي، وهذا يقتضي أنه سبحانه يحكم في الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة)[٢] وقال القرطبي رحمه الله في تفسير قوله سبحانه: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [سورة الفتح:٢٣]: (يعني طريقة الله سبحانه وعادته السالفة في نصر أوليائه على أعدائه)[٣] وذكر الراغب أن السنة الإلهية هي (طريقة حكمته سبحانه)[٤] وقال ابن القيم رحمه الله: (فسنته سبحانه عادته المعلومة)[٥] وعرفها

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٣/ ٢٠) لابن تيمية.

(٢) مجموع الفتاوى: (١٣/ ٢٣) لابن تيمية.

(٣) تفسير القرطبي: (١٦/ ٢٨٠).

(٤) المفردات في غريب القرآن: (٤٢٩) للراغب الأصفهاني.

(٥) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر، والحكمة والتعليل: (٢/ ١٤٣).

بعض المعاصرين بأنها (الطريقة المتبعة في معاملة الله للبشر، بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه، وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة)[١].

قال ابن تيمية ﵀: (وحقيقة الاستدلال بسنته وعادته: هو اعتبار الشيء بنظيره؛ وهو التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين؛ وهو الاعتبار المأمور به في القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [سورة آل عمران:١٣])[٢].

السنن الإلهية في التراث الإسلامي:

كانت عناية العلماء في التراث الإسلامي بموضوع السنن الإلهية تابعة لموارد ذكرها في القرآن والسنة والتاريخ، فلم يفردوها بالتأليف المستقل إلا في بعض الكتابات اليسيرة، ولذلك فإن أهم مصدر يبين كلام العلماء المتقدمين في هذا الباب هو: كتب التفسير، وذلك لكثرة ذكر السنن الإلهية في القرآن ولعناية المفسرين بذكر تفسير كل آية من الكتاب العزيز.

(١) عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية (١٣)

(٢) النبوات: (٢/ ٩٦٣) لابن تيمية.

ومن أفضل كتب التفسير في بيان السنن: كتاب جامع بيان القرآن، لإمام المفسرين ابن جرير الطبري ﷺ، وذلك لأنه يعتني بمبدأ (الاعتبار) في قصص الأنبياء كثيراً، وهو إذا تناول تفسير الآيات المرتبطة بالأنبياء يربطها مباشرة بالنبي محمد ﷺ وقومِه والسياقِ الذي نزلت فيه، ولذلك فإن قراءة تفسير قصص الأنبياء من كتاب الطبري أمر مهم جداً للمعتني بالسنن الإلهية.

ومن كتب التفسير المهمة كذلك في باب السنن: المحرر الوجيز لابن عطية، وتفسير ابن كثير، والبقاعي، والتحرير والتنوير لابن عاشور، وتفسير السعدي، وهذه أهم المراجع التي اعتمدتُها في هذه المادة.

ومن المصادر التراثية كذلك: كتب شروح السنة النبوية، عند مواضع ذكر السنن الإلهية في الأحاديث، ومنها كذلك: كتب السيرة النبوية، وذلك لأن السيرة هي المثال التطبيقي الجامع لسنن الله تعالى في القرآن، فبقدر فقه المرء للسيرة يزداد فقهاً بالسنن.

وأنفعُ قراءة للسيرة في مجال السنن هي تلك القراءة الرابطة بين القرآن وبين أحداث السيرة؛ فهذه أنفع قراءة وأزكاها وأكثرها عوناً للتفقه في الدين والسنن الإلهية، ومن الكتب التراثية المهمة المعتنية بربط الآيات مع السيرة، كتاب: سيرة ابن هشام، وقد اعتنيتُ بشيء من ذلك في سلسلة: (السيرة النبوية للمصلحين) كما أن كثيراً من المعاصرين كتبوا في السيرة النبوية كتابة فيها عناية ببيان الدروس والعبر من السيرة، مما يسهل استخراج الفوائد السننية.

ومن المصادر التراثية لمعرفة السنن كذلك: كتب التاريخ والتراجم، وخاصة تلك التي اعتنى مؤلفوها بجانب السنن، أو باستخراج الفوائد والعبر من الأحداث، وهذا يكثر في الكتب المعاصرة التي اعتنت بالتاريخ، مثل كتب الدكتور علي الصلابي الذي يولي موضوع السنن قدراً من الاهتمام في كتاباته التاريخية، ومما يعين على تحقيق الفائدة كذلك: العناية ببعض الحقب التاريخية التي اشتد فيها التدافع بين الحق والباطل، مثل حقبة الحروب الصليبية، ومعارك صلاح الدين الأيوبي، ونحو ذلك.

وسأذكر بعض النماذج من كتب التاريخ والتراجم فيها إبراز لقضية السنن الإلهية، فمن ذلك ما كتبه ابن خلدون في مقدمة تاريخه:

- قال رحمه الله: (ومن الغلط الخفيّ في التّاريخ الذّهول عن تبدّل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدّل الأعصار ومرور الأيّام، وهو داء دوي شديد الخفاء، إذ لا يقع إلّا بعد أحقاب متطاولة، فلا يكاد يتفطّن له إلّا الآحاد من أهل الخليقة، وذلك أنّ أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقرّ، إنّما هو اختلاف على الأيّام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدّول؛ سنّة الله الّتي قد خلت في عباده)[1].

- وقال كذلك: (فلا يزال الـمُلك مُلجئا في الأمّة إلى أن تنكسر سَورة العصبيّة منها، أو يفنى سائر عشائرها؛ سنّة الله في الحياة الدّنيا ﴿وَٱلۡأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [سورة الزخرف:٣٥])[2].

(١) (١/ ٣٧-٣٨).

(٢) (١/ ١٨٣)

وكذلك ابن كثير ﵀ يشير أحياناً في تاريخه إلى بعض المعالم، فمن ذلك قوله: (فيها -أي سنة ٦٦٢- استحضر الملك هولاكو خان الزين الحافظي وهو سليمان بن عامر العقرباني المعروف بالزين الحافظي، وقال له: قد ثبت عندي خيانتك، وقد كان هذا المغتر لما قدم التتار مع هولاكو دمشق وغيرها مالأ على المسلمين وآذاهم ودلّ على عوراتهم، حتى سلّطهم الله عليه بأنواع العقوبات والمثُلات ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾ [سورة الأنعام:١٢٩] ومن أعان ظالما سلط عليه، فإن الله ينتقم من الظالم بالظالم ثم ينتقم من الظالمين جميعا، نسأل الله العافية من انتقامه وغضبه وعقابه وشر عباده)[١]

وكذلك الذهبي ﵀، قال في سير أعلام النبلاء في ترجمة الشافعي ﵀: (وَقَدْ صَنَّفَ الحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الخَطِيْبُ كِتَاباً فِي ثُبُوتِ الاحْتِجَاجِ بِالإِمَامِ الشَّافِعِيِّ، وَمَا تَكَلَّمَ فِيْهِ إِلاَّ حَاسِدٌ أَوْ جَاهِلٌ بِحَالِهِ، فَكَانَ ذَلِكَ الكَلاَمُ البَاطِلُ مِنْهُم مُوْجِباً لارْتِفَاعِ شَأْنِهِ، وَعُلُوِّ قَدْرِهِ، وَتِلْكَ سُنَّةُ اللهِ فِي عِبَادِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ [سورة الأحزاب:٦٩-٧٠].)[٢]

وقال في تاريخ الإسلام في ترجمة أبي عبد الرحمن البصري: (كَانَ يستخف بالأئمّة، قَالَ: يكذِب سُفيان، وتكلّم في غُنْدَر. وقال عَنِ القطّان: ذاك الأحول. وكذا سُنّة الله في كلّ مِن ازدرى بالعلماء بقي حقيرًا.)[٣]

---

(١) البداية والنهاية: (١٣/ ٢٨٣).

(٢) سير أعلام النبلاء: (٨/ ٢٥٤).

(٣) تاريخ الإسلام: (١٣/ ١٣٥) للذهبي.

ومن المصادر كذلك: التطبيقات المتفرقة من العلماء للسنن الإلهية وتنزيلها على واقعهم، وهي مهمة جداً، ومن فوائدها أنها تضبط شيئاً من حدود الفقه للسنن، ومن أفضل الأمثلة التي رأيتها في ذلك ما قام به ابن تيمية رحمه الله من تنزيل معاني السنن الإلهية في مواجهة التتر، وتحليله لأسباب النصر والهزيمة على ضوء السنن، وتوقعه لنتائج المعركة القادمة في ضوء السنن كذلك، وهذه بعض النصوص والأمثلة المتعلقة بذلك:

قال ابن كثير: «وَكَانَ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ يَحْلِفُ لِلْأُمَرَاءِ وَالنَّاسِ: إِنَّكُمْ فِي هَذِهِ الْكَرَّةِ مَنْصُورُونَ عَلَى التَّتَارِ، فَيَقُولُ لَهُ الْأُمَرَاءُ: قُلْ إِنْ شَاءَ الله، فَيَقُولُ: إِنْ شَاءَ الله تَحْقِيقًا لَا تَعْلِيقًا، وَكَانَ يَتَأَوَّلُ فِي ذَلِكَ أَشْيَاءَ مِنْ كِتَابِ الله، مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [سورة الحج:٦٠]»[١].

ومن أشمل الأمثلة على تطبيق ابن تيمية رحمه الله للسنن الإلهيّة: مقارنته بين حال قتالهم مع التتر وبين معركة الأحزاب.

والمقصود من هذا كله بيان بعض موارد السنن في التراث الإسلامي.

خارطة المادة:

سأتناول موضوع السنن الإلهية في هذا الكتاب عبر الفصول التالية:

ابتدأتُ أولاً: بمقدمة ومدخل في تعريف السنن ومصادرها في التراث وأهميتها وسياق الكتاب.

---

(١) البداية والنهاية (١٨/ ٢٣)

ثـم عقـدتُ فصـلاً فيـه قواعـد منهجيـة في التعامـل مـع السـنن الإلهيـة.

ثم شرعتُ في بيان السنن الإلهية على وجه التفصيل، على النحو التالي:

١- سنّة التدافع والمداولة.

٢- سنّة الابتلاء.

٣- سنة النصر والتمكين والاستخلاف.

٤- سنة إهلاك الظالمين.

وقد تناولتُ كل سنة من هذه السنن الأربع من سبعة وجوه، وهي:

١- بيان معنى السنة.

٢- ضوابط منهجية لفهم هذه السنة.

٣- أدلة هذه السنة من الوحي وتحرير كلام المفسرين حولها.

٤- علاقة هذه السنة بغيرها من السنن.

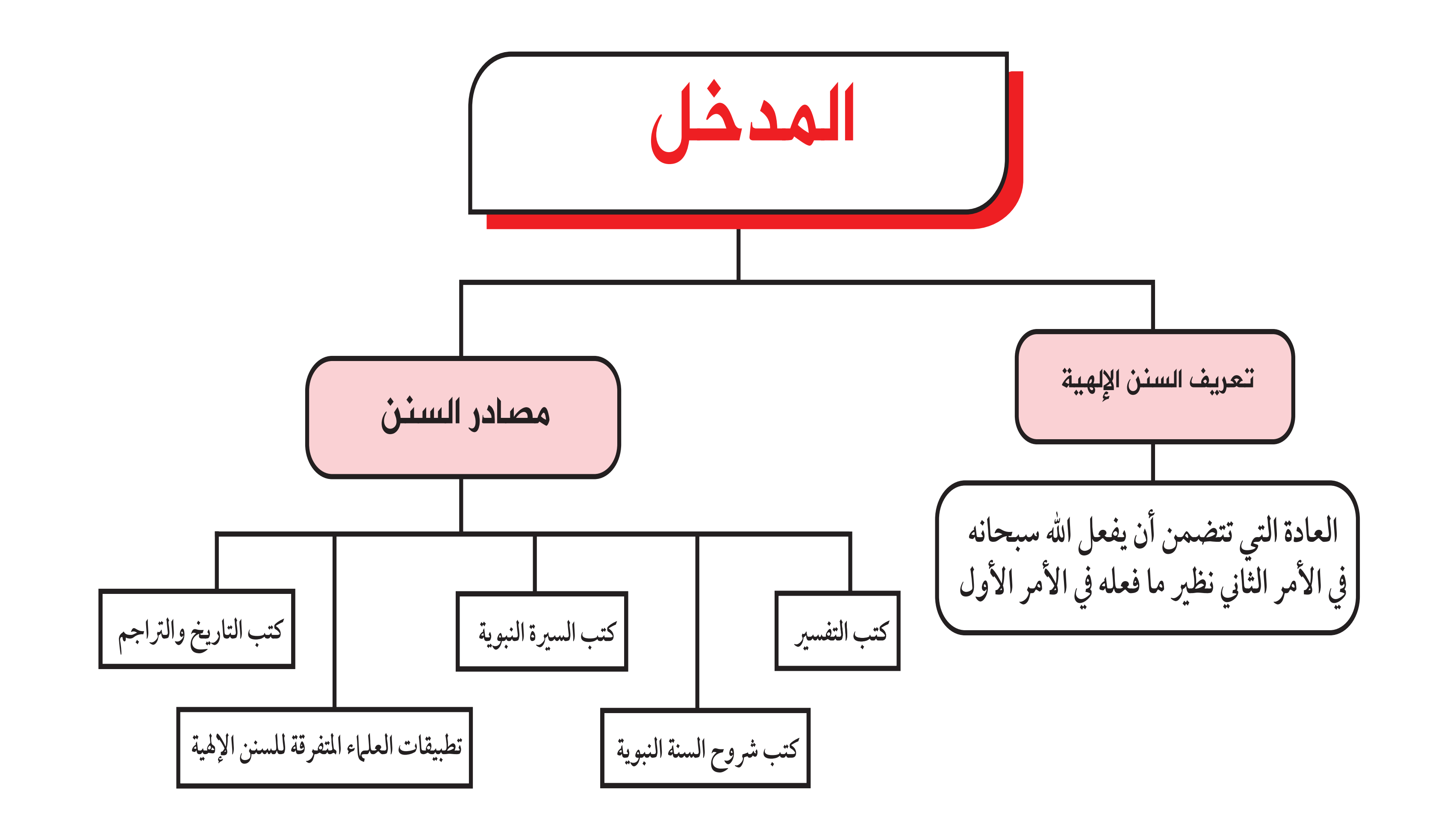
٥- الحِكَم والمقاصد من هذه السنّة.

٦- الثمرات المترتبة على الوعي بهذه السنة.

٧- تنزيل هذه السنّة على الواقع.

ثـم إنني بعـد ذلـك كلـه أحمـد الله سـبحانه عـلى التوفيـق والتـمام، وأسـأله أن يبـارك في هـذا الكتـاب وينفـع بـه.

❊ ❊ ❊


المدخل
تعريف السنن الإلهية
العادة التي تتضمن أن يفعل الله سبحانه
في الأمر الثاني نظير ما فعله في الأمر الأول
مصادر السنن
كتب التفسير
كتب شروح السنة النبوية
كتب السيرة النبوية
تطبيقات العلماء المتفرقة للسنن الإلهية
كتب التاريخ والتراجم

قواعد منهجية عامة للتعامل مع السنن الإلهية وفهمها

القاعدة الأولى: موضوع السنن الإلهية من محكمات الدين ومركزياته وأصوله:

إذا كان العلم بالله تعالى أشرف العلوم والموضوعات؛ فإن باب السنن الإلهية من أعظم الأبواب الموصلة إلى العلم به سبحانه، وذلك لأنه باب متعلق بأفعال الله وأقداره وحكمته، وهو باب متصل كذلك بأسمائه وصفاته التي تجري أقداره على مقتضاها؛ فكلما ازداد المرء علماً بسنن الله ازداد علماً به سبحانه، والعكس صحيح؛ كلما ازداد المرء علماً بأسماء الله وصفاته وتفقه فيها ازداد علماً بسننه في خلقه سبحانه.

كما أن هذا الباب قامت عليه أمور الكون كلّها، وانتظمت به أحوال الأمم، وسار على وفقه الأنبياء والرسل، ولذلك فكلما ازداد المرء علماً بأحوال الكون ونظامه؛ وبأحوال الأنبياء والرسل ودعوتهم وقيامهم بالحق وصبرهم وجهادهم، ثم تأمل في تأييد الله لهم ونصره إياهم وإهلاكه أعداءهم؛ ازداد علماً بالله وسننه وحكمته، فهو باب شريف غاية الشرف.

ومما يدل على أهمية هذا الباب ومركزيته أن له ذكراً واسعاً في كتاب الله سبحانه، بل إن هذا الموضوع هو من أبرز موضوعات القرآن وأعظمها، كما سيظهر في القاعدة التالية.

ومن ثمرات الوعي بهذه القاعدة: أنه لا يليق بالمصلح ولا ينبغي له أن يُعرض عن باب السنن الإلهية وهو بهذا القدر من الأهمية والإحكام.



القاعدة الثانية: أن أساليب القرآن في عرض السنن كثيرة ومتنوعة، وأن تحقيق الفهم للسنن لا يكون إلا بعد الاستقراء الواسع لموارد ذكرها في القرآن:

ورد ذكر السنن الإلهية بلفظها الصريح في القرآن في بضعة عشر موضعاً، تارة بالإفراد ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ وتارة بالجمع﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾، غير أنّ الحديث عن السنن في القرآن الكريم لا ينحصر في اللفظ الصريح، بل عامة ما جاء فيه أتى بألفاظ أخرى معبرة عن معنى السنن، ومن أهم موارد ذِكر هذا المعنى في القرآن: القصص التي ذكرها سبحانه عن الأمم والرسل وأتباعهم وأعدائهم، فإن الله سبحانه جعل هذه القصص المورد الأعظم للحديث عن سننه، وهذه القصص من أكثر الموضوعات ذِكْراً في القرآن، والله سبحانه يُعقّب على هذه القصص بجُمل تدل على عدم انحصارها فيمن سماهم من الأعيان والأقوام، وتدل على أن ما قدّره وأجراه عليهم سيجريه على من يشابههم في الأفعال، كما قال سبحانه في سورة القمر -بعد أن ذكر إهلاكه لقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وفرعون-:﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ [سورة القمر:٤٣] هذا بالإضافة إلى كثير من الصيغ الأخرى التي تدل على سننه سبحانه، ومنها مثلاً ما يأتي بصيغة: «وما كان ربك» كما قال محمد رشيد رضا ﷺ في قوله تعالى:﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [سورة هود:١١٧] قال: (قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ معناه: ما كان من شأنه ذلك، ولم تجر سنته به، فكلّ آية مُصدّرة بذلك فهي قاعدة عامة تنبئ عن سنة ثابتة) [١].

(١) مجلة المنار، المجلد الأول صفحة (٥٨٥)

القاعدة الثالثة: السنن الإلهية أنواع متعددة، ولكل نوع منها خصائص، ولا بد من فهم تنوعها وخصائصها:

تتنوع السنن الإلهية وتتعدد متعلقاتها، فمنها ما هو متعلق بالكون وتسخيره، ومنها ما هو متعلق بالحياة الإنسانية ونظامها، كما تنقسم السنن المتعلقة بالحياة الإنسانية إلى سنن متعلقة بالأمم والجماعات، وسنن تتعلق بالأفراد، ولكل من هذه الأنواع خصائص ينبغي فقهها وإدراكها، حتى يُتعامَل مع كل نوع بخصائصه.

كما قال ابن تيمية ﵀ مبيناً شيئاً من الفرق بين السنن الكونية والسنن المتعلقة بنصر الله لأوليائه: (العَادَات الطبيعية لَيْسَ للرب فِيهَا سنة لَازِمَة فَإِنَّهُ قد عرف بالدلائل اليقينية أَن الشَّمْس وَالْقَمَر وَالْكَوَاكِب مخلوقة بعد أَن لم تكن فَهَذَا تَبْدِيل وَقع، وَقد قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم:٤٨]، وَأَيْضًا فقد عرف انْتِقَاض عَامَّة الْعَادَات، فالعادة فِي بني آدم أَلا يخلقوا إِلَّا من أبوين، وَقد خلق الْمَسِيح من أم، وحواء من أَب، وآدَم من غير أم وَلَا أَب، وإحياء الموتى متواتر مَرَّات مُتعَدِّدَة، وَكَذَلِكَ تَكْثِير الطَّعَام وَالشرَاب لغير وَاحِد من الْأَنْبِيَاء وَالصَّالِحين عَلَيْهِم السَّلَام.

وَهَذَا خلاف عَادَته الَّتِي وعد بهَا وَأخبر أَنَّهَا لَا تَتَغَيَّر لنصرة أوليائه وإهانة أعدائه فَإِن هَذَا علم بِخَبَرِهِ وحكمته، أما خَبره فَإِنَّهُ أخبر بذلك ووعد بِهِ وَهُوَ الصَّادِق الَّذِي لَا يخلف الميعاد، وَهَذَا يُوَافق طرق جَمِيع طوائف أهل الْملَل، وَيَقُولُونَ: مُقْتَضى حكمته أَن يكون الْعَاقِبَة والنصر لأوليائه دون أعدائه كَمَا قد بسط ذَلِك فِي مَوَاضِع.

وَقوله تَعَالَى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [سورة فاطر:٤٣].

« دَلِيل على أَن هَـذَا من مُقْتَضى حكمته، وَأَنه يقْضِي فِي الْأُمُور المتماثلة بِقَضَاء متماثل، لَا بِقَضَاء مُخَالف، فَإِذا كَانَ قد نصر الْمُؤمنِينَ لأَنهم مُؤمنُونَ كَانَ هَذَا مُوجبا لنصرهم حَيْثُ وجد هَذَا الْوَصْف، بِخِلَاف مَا إِذا عصوا وَنَقَضُوا إِيمَانهم كَيَوْم أحد، فَإِن الذَّنب كَانَ لَهُم»[1]

ومن المراجع المفيدة في معرفة خصائص السنن الإلهية، وخاصة الفرق بين السنن المتعلقة بالأمم والجماعات والمتعلقة بالأفراد: كتاب سنن الله في الأمم، للدكتور حسن الحميد.



(١) جامع الرسائل لابن تيمية: (١/ ٥٣) فما بعدها – رشاد سالم.

القاعدة الرابعة: السنن الإلهية تتداخل في المحلّ الواحد، والفقيه هو الذي يميّز السنن ويدرك التداخل بينها:

إن من أهم القواعد لفهم السنن الإلهية إدراك التداخل بين السنن الإلهية، وعدم النظر بعين واحدة إلى سنة واحدة وترك ما قد يتداخل معها في نفس محل النظر، فعلى سبيل المثال: قد تجتمع سنة النصر وسنة المداولة في سياق واحد، كما حصل يوم أحد الذي ابتدأ بالنصر الموعود الذي وصفه الله بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [سورة آل عمران:١٥٢] قال الطبري ﵀: (يعني تعالى ذكره بذلك: ولقد وَفَى الله لكم، أيها المؤمنون من أصحاب رسول الله ﷺ، بما وعدكم من النصر على عدوكم بأُحُد، حين ﴿تَحُسُّونَهُم﴾، يعني: حين تقتلونهم)[١] فهذا تحقُّق لوعد الله وسنته، ثم بعد ذلك لما تغير الواقع وتخلّف شرط النصر، تغيّر الحال، وأدال الله المشركين على المسلمين، ثم أنزل في نفس السورة بياناً لذلك، فقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران:١٤٠] فتداخلت هنا سنتا النصر والمداولة.

وكذلك في واقعنا اليوم قد يقول قائل: قد وُجِد المؤمنون فلماذا لا ينزل النصر، وقد وُجد المجرمون الظالمون فلماذا لا يهلكهم الله سبحانه؟

والجواب من وجوه متعددة، منها، أن الله كما أخبر أنه ينصر المؤمنين فقد أخبر أنه يبتليهم، وكلاهما من سنته في المؤمنين ولكل منهما سياقه وشروطه وزمنه، وكما أخبر أنه يهلك الظالمين فقد أخبر أنه يملي لهم ويستدرجهم كذلك، فلا تنظر بعين واحدة إلى سنة من هذه السنن دون إدراك الأخرى،

(١) تفسير الطبري: (٦/ ١٣٣).

وهكذا كلما ازداد المرء علماً بمجموع السنن ازداد فقهاً في تنزيلها على الواقع.



القاعدة الخامسة: أن لِتحقُّق السُّنن الإلهية شروطاً ولرفعها موانع:

إن من أبرز صور الخطأ في التعامل مع السنن الإلهية: التعامل مع إطلاقات الآيات القرآنية فيها دون نظر للشروط المتعلقة بها، فالله ﷻ يذكر في ثنايا وعوده الصادقة صفاتٍ ينبغي التمثل بها، ويحذر من أحوال ينبغي اجتنابها؛ حتى تتحقق هذه السنن، فينبغي عدم إهمال ذلك في النظر والعمل، حتى يفقه المرء السنن ويعمل على ضوئها.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما جرى يوم أُحد حين رفع الله عن المؤمنين نصره لتخلف الشرط عن البعض أثناء المعركة، وقد بيّن ذلك سبحانه بياناً شافياً في أكثر من موضع من سورة آل عمران؛ لكي يفقه المؤمنون تعلق الوعود والسنن بالشروط والأحوال، كما قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [سورة آل عمران:١٥٢]، وقال جلّ وعلا: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة آل عمران:١٦٥]



القاعدة السادسة: أن المقياس الزمني في تحقق السنن هو المقياس الإلهي لا المقياس البشري المحدود:

السنن الإلهية المتعلقة بالأمم والجماعات تتطلب سياقا زمنيا واسعاً لتحققها، وقد لا يُدركها كل الأفراد الذين عاشوا آلام تلك الحقبة أو آمالها، فقد توفي بعض أصحاب رسول الله ﷺ قبل أن يروا تحقق سنة النصر والتمكين وإهلاك المكذبين، مع أنهم قرؤوها في كتاب الله وآمنوا بها، ولكنهم لم يدركوا زمن وقوعها، وأدركها مجموع الصحابة مع نبيهم ﷺ.

وكذلك مشركو قريش الذين توعدهم الله بالعذاب في الدنيا لم يدركوا كلهم يوم بدر الذي حقق الله فيه سنته عليهم، ولكن جماعتهم أدركوها ورأوها، وكان هناك زمن بين كل ذلك، كما قال عمر رضي الله تعالى عنه فيما رواه عنه عكرمة، قال: (لما نزلت ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [سورة القمر:٤٥] قال عمر: أي جمع يهزم؟ أي جمع يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع، وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ)[١]

وكذلك في شأن بني إسرائيل زمن فرعون، حين بين الله تعالى أنه يريد أن يمكن لهم في الأرض ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين، كان بين هذه الكلمة وبين تحققها زمن طويل جداً، سالت فيه دماء وقُتل فيه أبرياء واشتد فيه البلاء، ولكن: لكل نبأ مستقر، ولكل أجل كتاب.

(١) أورده ابن كثير في تفسيره: (٧/ ٤٤٦) من طريق ابن أبي حاتم.

ومن أهم الأدلة على هذه القاعدة، قوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [سورة البقرة: ٢١٤] فانظر كيف حصل من البشر استبطاء زمن النصر، وأما في ميزان الله فهو قريب كما بيّن سبحانه.

وهذه القاعدة تفيد الناظر في السنن الإلهية بألا يستعجل تحققها، فالله بكل شيء محيط، ويقدر الأقدار بميزانه، وهو غالب على أمره، لا يفوته شيء سبحانه.



القاعدة السابعة: أهمية الوعي بالواقع لفهم السنن الإلهية:

إن السنن الإلهية مرتبطة بالواقع ارتباطاً وثيقاً، ولا يمكن التفاعل معها وبناء الإصلاح على ضوئها إلا بوعي واسع بالواقع الذي تتنزل عليه هذه السنن، وهذا مقتضى الاعتبار، فإن أهم مورد للسنن في القرآن ما ذكره الله من أحوال الأنبياء وأقوامهم، والمطلوب من المؤمن أن يعتبر أحوالهم ليفهم سنة الله النازلة في مثل هذه الأحوال، وهذا يتطلب صواباً في الربط بين الواقع المعاصر وبين واقع الأنبياء وأقوامهم، فإذا لم يكن المتفقه على علم بالواقع الذي يريد تنزيل السنن عليه فقد ينزل عليه سنّة منفكّة عنه، وهذا يوقع في الإشكال. ولذلك، فإن على المرء أن يحرص على الفقه بواقع أعداء الإسلام وكيدهم، وواقع المسلمين وأحوالهم، ثم يعتبر ذلك بميزان السنن.

وهذا مثال تطبيقي مهم لهذه القاعدة حصل في زمن ابن تيمية رحمه الله في سياق التدافع مع التتر، إذ كان على وعي بواقع المسلمين ومشكلاتهم وتأثيرها على سنة النصر، وذلك في حادثتين منفصلتين فيهما عبرة كبيرة.

قال رحمه الله في الحادثة الأولى: «وكانت هزيمة المسلمين في العام الماضي بذنوب ظاهرة وخطايا واضحة: من فساد النيات والفخر والخيلاء والظلم والفواحش والإعراض عن حكم الكتاب والسنة وعن المحافظة على فرائض الله والبغي على كثير من المسلمين الذين بأرض الجزيرة والروم...، فكان من حكمة الله ورحمته بالمؤمنين أن ابتلاهم بما ابتلاهم به؛ ليمحص الله الذين آمنوا وينيبوا إلى ربهم، وليظهر من عدوهم ما ظهر منه من البغي والمكر والنكث والخروج عن شرائع الإسلام فيقوم بهم ما يستوجبون به النصر وبعدوهم ما يستوجب به

الانتقام، فقد كان في نفوس كثير من مقاتلة المسلمين ورعيتهم من الشر الكبير ما لو يقترن به ظفر بعدوهم - الذي هو على الحال المذكورة - لأوجب لهم ذلك من فساد الدين والدنيا ما لا يوصف، كما أن نصر الله للمسلمين يوم بدر كان رحمة ونعمة وهزيمتهم يوم أحد كان نعمة ورحمة على المؤمنين»(١).

وقال ﷺ في الحادثة الثانية بعد قدوم التتار إلى دمشق: «فلما كان بعد ذلك جعلنا نأمر الناس بإخلاص الدين لله والاستغاثة به، وأنهم لا يستغيثون إلا إياه، لا يستغيثون بملك مقرّب ولا نبي مرسل، كما قال تعالى يوم بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [سورة الأنفال:٩]، ورُوي أن رسول الله ﷺ كان يوم بدر يقول: «**يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث**».. فلما أصلح الناس أمورهم، وصدقوا في الاستغاثة بربهم؛ نصرهم على عدوهم نصراً عزيزاً؛ لم يتقدم نظيره، ولم تهزم التتار مثل هذه الهزيمة قبل ذلك أصلاً، لما صح من تحقيق توحيده وطاعة رسوله ما لم يكن قبل ذلك، فإن الله ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد»(٢).



(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٣١ -٤٣٢).

(٢) «الاستغاثة في الرد على البكري» (٤١٣ – ٤١٤).

القاعدة الثامنة: أهمية الجمع بين الأصل النظري للسنة الإلهية وبين تمثلاتها العملية في الأمم والأقوام:

إن من أهم ما يعين على فهم السنن الإلهية أن يُجمع بين القواعد النظرية المؤَسِّسَةِ لها، من نحو قوله سبحانه: (﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [سورة غافر:٥١]) وبين تمثلات هذا النصر للرسل بتتبع أحوال كل رسول ذكر الله نصره في القرآن، فهذا الجمع يفيد كثيرا في تصور حدود هذه السنة ومتعلقاتها، وبهذا التتبع نُدرك أن النصر على درجات متفاوتة، فمنه (نَصْرُ الغَلَبَةِ) في القتال كما نصر الله نبيه محمداً ﷺ، ومنه (نَصْرُ الإِنْجَاءِ مِنَ الأَعْدَاء) دون غلبة قتال كما نصر الله سبحانه نبيه نوحاً وإبراهيم ولوطاً.

ولا ينحصر هذا الفقه في تتبع الأمثلة العملية في القرآن، بل يشمل المعرفة بالتاريخ والسير في الأرض وتتبع أحوال الأمم كذلك، فهذا من جملة ما أمر الله به في شأن السنن، وثمرة ذلك لا تتعلق بمعنى فهم السنة فقط، وإنما تمتد إلى الاعتبار بها وتعظيم محلها في القلب.

وقد ذكر بعض العلماء أهمية النظر في التاريخ وعلاقة ذلك في السنن، كما قال ابن عاشور رحمه الله عند قوله سبحانه: ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝١٣٧﴾ [سورة آل عمران:١٣٧].

قال: (وفي الآية دلالة على أهمية علم التاريخ لأن فيه فائدة السير في الأرض، وهي معرفة أخبار الأوائل، وأسباب صلاح الأمم وفسادها. قال ابن عرفة: السير في الأرض حسي ومعنوي، والمعنوي هو النظر في كتب التاريخ بحيث يحصل للناظر العلم بأحوال الأمم، وما يقرب من العلم، وقد يحصل به من

العلم ما لا يحصل بالسير في الأرض لعجز الإنسان وقصوره. وإنما أمر الله بالسير في الأرض دون مطالعة الكتب لأن في المخاطبين من كانوا أميين، ولأن المشاهدة تفيد من لم يقرأ علما وتقوي علم من قرأ التاريخ أو قص عليه)[١].

❊ ❁ ❊

(١) التحرير والتنوير: (٤/ ٩٧) لابن عاشور.

قواعد منهجية عامة للتعامل مع السنن الإلهية وفهمها

السنن الإلهية من محكمات الدين ومركزياته وأصوله

أساليب القرآن في عرض السنن متنوعة وكثيرة، وتحقيق الفهم للسنن لا يكون إلا بعد الاستقراء الواسع لموارد ذكرها في القرآن

السنن الإلهية أنواع متعددة، ولكل نوع منها خصائص، ولا بد من فهم ذلك

السنن الإلهية تتداخل في المحل الواحد، والفقيه الذي يميز السنن ويدرك التداخل بينها

لتحقق السنن الإلهية شروط وموانع

المقياس الزمني في تحقق السنن هو المقياس الإلهي، لا المقياس البشري المحدود

الوعي بالواقع مهم لفهم السنن الإلهية

من المهم الجمع بين الأصل النظري للسنة الإلهية وبين تمثلاتها العملية في الأمم والأقوام

القول التفصيلي في السنن الإلهية:

السُّنَّة الأولى: سنة إيجاد أعداء الحق والتدافع بين الحق والباطل والمداولة بين الناس.

السُّنَّة الثانية: سنة الابتلاء

السُّنَّة الثالثة: سنة النصر والاستخلاف والتمكين للمؤمنين

السُّنَّة الرابعة: سنة الإهلاك والأخذ والعقاب على الذنوب

السُّنَّةُ الأولى:

سنة إيجاد أعداء الحق

والتدافع بين الحق والباطل

والمداولة بين الناس

السُّنَّةُ الأولى:

سنة إيجاد أعداء الحق والتدافع بين الحق والباطل والمداولة بين الناس

هذه ثلاث سنن أدرجتها مع بعضها لتقاربها واتصالها ببعضها، والتفصيل فيها على النحو التالي:

أولاً: بيان معنى هذه السنن:

١ - سنّة إيجاد أعداء الحق: هي السنة الإلهية القاضية بأنّ الله سبحانه يجعل لأنبيائه وأتباعهم أعداءً يقاتلونهم ويعادونهم ويكيدون لهم.

٢- سنة التدافع: هي السنة الإلهية القاضية بأنْ يكفّ عادية المفسدين بالمصلحين، ويدفع الناس بعضهم ببعض، ويقذف سبحانه بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

٣- سنة التداول: هي السنّة الإلهية القاضية بأن الله تعالى يجعل الأيام دولاً بين أهل الحق وأهل الباطل، فلا ينتصر الحق مباشرة وإنما يديل الله الباطل عليه في بعض المراحل، ثم تكون العاقبة لأهل الحق، فهي سنة قريبة من سنّة التدافع ولكنها مُحدِّدة لبعض جولات هذا التدافع بحيث لا يُفهم أن الدولة للإسلام وأهله دائماً.

❋ ۞ ❋

ثانياً: ضوابط منهجية لفهم سنة التدافع وسنة المداولة:

أولاً: أن إيجاد أعداء الحق، وتحقق التدافع والصراع بين الحق والباطل لا ينحصر في الأمر الـمُشاهد المحسوس بين المسلمين وأعدائهم، بل هو واسع يشمل شيئا من عالم الغيب كذلك، فيدخل فيه الصراع بين الإنس والشياطين، وهو من آكد صور هذا التدافع، ويشمل دفع الملائكة للمجرمين، إمّا بالإهلاك المباشر للقرى الظالمة كما في الصيحة لقوم ثمود وكما في إهلاك قوم لوط، أو بالقتال المباشر للكفار كيوم بدر، أو بتثبيتهم للمؤمنين كما في يوم بدر كذلك، أو بتأييدهم بأنواع التأييد المناسبة لصورة التدافع، كما في حديث: (**اهجهم وجبريل معك**).[1]

ثانياً: أنّ سنة التدافع وإن كانت في الأصل متعلقة بالمؤمنين والمصلحين، بأن يدفع الله بهم فساد أهل الباطل، إلا أنها لا تختص بهم، بل هي نظام رباني لحفظ الأرض، ولذلك ختم الله سبحانه آية: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [سورة البقرة:٢٥١]، بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة البقرة:٢٥١] وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام ابن عاشور ﷺ بقوله: (وعَلَّقَ الفَضْلَ بِالعالَمِينَ كُلِّهِمْ لِأنَّ هَذِهِ المِنَّةَ لا تَخْتَصُّ)[2]

ثالثاً: أن أهم صورة جاءت في القرآن لتحقق سنة دفع الباطل بالحق، هي: الجهاد في سبيل الله، فالسياق في آية البقرة ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ متعلق بقتال طالوت والذين آمنوا معه لجالوت وجنوده،

---

(١) رواه البخاري: (٣٢١٣)، ومسلم: (٢٤٨٦).

(٢) التحرير والتنوير: (٢/ ٥٠٣) لابن عاشور.

والسياق في سورة الحج: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ﴾ [الحج:٤٠]، متعلق بقوله سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ [الحج:٣٩] والتي هي آية في الإذن بالقتال في سبيل الله. ولذلك قال الإمام ابن عطية رحمه الله في تفسير الآية: (وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ الآية تقوية للأمر بالقتال، وذكر الحجة بالمصلحة فيه، وذكر أنه متقدم في الأمم، وبه صلحت الشرائع واجتمعت المتعبدات، فكأنه قال: أذن في القتال فليقاتل المؤمنون، ولولا القتال والجهاد لتغلب على الحق في كل أمة. هذا أصوب تأويلات الآية. ثم ما قيل بعدُ من مثل الدفاع تبع للجهاد)[١]، وأما الطبري فاستحسن في تفسير الآية كل الوجوه في الدفع والتي منها القتال، فقال: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أنه لولا دفاعه الناس بعضهم ببعض، لهُدم ما ذكر، من دفعه تعالى ذكره بعضهم ببعض، وكفِّه المشركين بالمسلمين عن ذلك؛ ومنه كفه ببعضهم التظالم، كالسلطان الذي كفّ به رعيته عن التظالم بينهم؛ ومنه كفُّه لمن أجاز شهادته بينهم ببعضهم عن الذهاب بحق من له قبله حق، ونحو ذلك. وكلّ ذلك دفع منه الناس بعضهم عن بعض، لولا ذلك لتظالموا، فهدم القاهرون صوامع المقهورين وبيَعهم وما سمّى جل ثناؤه. ولم يضع الله تعالى دلالة في عقل على أنه عنى من ذلك بعضا دون بعض، ولا جاء بأن ذلك كذلك خبر يجب التسليم له، فذلك على الظاهر والعموم على ما قد بيَّنته قبل لعموم ظاهر ذلك جميع ما ذكرنا)[٢].

(١) المحرر الوجيز: (٤/ ١٢٤) لابن عطية.

(٢) تفسير الطبري: (١٦/ ٥٧٩).

ثالثاً: أدلة هذه السنة من الوحي، وبيان معنى هذه الأدلة وتحرير كلام المفسرين حولها:

من يتأمل في كتاب الله عزّ وجل يجد أن معنى التدافع والصراع بين الحق والباطل قد ذُكر كثيراً، وأن الله سبحانه بيّن لنا أنه جعل الشيطان لنا عدوّاً وأمرنا أن نتخذه عدواً، وبيّن لنا أنه جعل لكل نبي عدوّاً من المجرمين، وأنّه سبحانه ابتلى أنبياءه ورسله بالأعداء المكذبين المتسلطين، وهكذا على مرّ التاريخ: حيث وُجد الحق وحملته وُجد الباطل وحَمَلته.

وهذه وقفة مع بعض الآيات مقسمة على هذه السنن الثلاث، للتأمل والوقوف مع أهم ما قاله المفسرون حولها:

١- الأدلة على سنة إيجاد أعداء الحق:

وفيها عدد من الآيات والأحاديث، ومنها:

١) قوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢] .

هذه الآية تبين أن سنة التدافع بين الحق والباطل ليست متعلقة بالمجرمين من الإنس فقط، بل هي متعلقة بالشياطين من الجنّ كذلك، فهم من جملة أعداء الأنبياء والرسل، والعلاقة بينهم وبين شياطين الإنس في معادة الحق وثيقة كما بينها الله في هذه الآية.

قال الشيخ ابن سعدي ﷺ مبيّناً كون هذه الآية متضمنةً سنة إلهية: (يقول تعالى -مسليا لرسوله محمد ﷺ-: وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك، ويحاربونك، ويحسدونك، **فهذه سنتنا**، أن نجعل لكل نبي نرسله إلى الخلق أعداء، من شياطين الإنس والجن، يقومون بضد ما جاءت به الرسل)(١).
وكذلك قال ابن عاشور مبيّناً كونها سنة -في كلام جميل-: (فأنبأه الله: بأن هؤلاء أعداؤه، وأن عداوة أمثالهم لمثله سنة من سنن الله تعالى في ابتلاء أنبيائه كلهم، فما منهم أحد إلا كان له أعداء، فلم تكن عداوة هؤلاء للنبيء عليه الصلاة والسلام بِدْعا من شأن الرسل، فمعنى الكلام: ألست نبيئا وقد جعلنا لكل نبيء عدوا إلى آخره)(٢).

قال الطبري ﷺ في تفسير هذه الآية: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، مسلِّيَه بذلك عما لقي من كفرة قومه في ذات الله، وحاثًّا له على الصبر على ما نال فيه:﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾، يقول: وكما ابتليناك، يا محمد، بأن جعلنا لك من مشركي قومك أعداء شياطينَ يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول، ليصدُّوهم بمجادلتهم إياك بذلك عن اتباعك والإيمان بك وبما جئتهم به من عند ربّك، كذلك ابتلينا من قبلك من الأنبياء والرسّل، بأن جعلنا لهم أعداءً من قومهم يؤذُونهم بالجدال والخصومات. يقول: فهذا الذي امتحنتك به، لم تخصص به من بينهم وحدك، بل قد عممتهم بذلك معك لأبتليهم وأختبرهم، مع قدرتي على منع من آذاهم من إيذائهم، فلم أفعل ذلك إلا لأعرف أولي العزم منهم من غيرهم. يقول: فاصبر أنتَ كما صبر أولو العزم من الرسل.)(٣).

---

(١) تفسير ابن سعدي: (٢٦٩).
(٢) التحرير والتنوير: (٨ أ/ ٨) لابن عاشور.
(٣) تفسير الطبري: (٩/ ٤٩٧).

٢) **قوله ﷻ:** ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٣١].

قال الطبري ﵀: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وكما جعلنا لك يا محمد أعداء من مشركي قومك، كذلك جعلنا لكل من نبأناه من قبلك عدوا من مشركي قومه، فلم تخصص بذلك من بينهم. يقول: فاصبر لما نالك منهم كما صبر من قبلك أولو العزم من رسلنا)[١].

وقال ابن عاشور مبيّناً أن الآية تدلّ على كون هذا العداء سنّة ثابتة يواجهها جميع الرسل: (هذه تسلية للنبيء ﷺ بأن ما لقيه من بعض قومه هو سنة من سنن الأمم مع أنبيائهم)[٢]، وهذا هو المستفاد من قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ ومن عموم الآية كونها تشمل كلّ الأنبياء.

٣) **قول ورقة بن نوفل في الحديث الصحيح: «لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي»[٣].**

هذا القول الحقّ من ورقة بن نوفل ﵀ حين بعثة النبي ﷺ، أتى من علمه بأخبار الأنبياء والأمم السابقة، وهو مهم في بيان استمرار سنة معاداة الحق على مرّ التاريخ.

---

(١) تفسير الطبري: (١٧/ ٤٤٤).
(٢) التحرير والتنوير: (١٩/ ١٧) لابن عاشور.
(٣) صحيح البخاري: (٣).

٢- الأدلة على سنة التدافع:

١) قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾

[سورة البقرة:٢٥١] .

هذه الآية أصل من أصول سنة التدافع، وقد مرّ معنا الحديث عنها في أكثر من موضع من هذا الكتاب، وهي آتية في سياق دفع الباطل بالحق، وقتْل داود لجالوت، وقتال طالوت والذين آمنوا معه لجالوت وجنوده، فهي في الأصل في سياق التدافع بين الحق والباطل، وإن كان بعض العلماء أخذ منها المعنى العام لدفع الفساد عن الأرض ولو كان بغير أهل الحق، كما قال البقاعي ؒ: (فتارة ينصر قويهم على ضعيفهم كما هو مقتضى القياس، وتارة ينصر ضعيفهم - كما فعل في قصة طالوت - على قويهم، حتى لا يزال ما أقامَ بينهم من سبب الحفظ بهيبة بعضهم لبعض قائماً. ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ بأكل القوي الضعيف حتى لا يبقى أحد ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالى بعظمته وجلاله وعزته وكماله يكف بعض الناس ببعض، ويولي بعض الظالمين بعضا، وقد يؤيد الدين بالرجل الفاجر، على نظامٍ دبّره، وقانون أحكمه في الأزل؛ يكون سببا لكف القوي عن الضعيف، إبقاءً لهذا الوجود على هذا النظام إلى الحد الذي حده)[(١)] .

وأشار الإمام ابن عطية إلى معنىً يستحق التأمل متعلق بالآية، حيث جعلها من دلائل عدم خلوّ الزمان من قائم بالحق يدعو إلى الله ويدافع عن دين الله، فقال ؒ: (أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لولا دفعه بالمؤمنين في صدور الكفرة على مر الدهر لفسدت الأرض، لأن الكفر كان يطبقها ويتمادى في جميع أقطارها ولكنه تعالى لا يخلي الزمان من قائم بحق، وداع إلى الله، ومقاتل عليه، إلى أن

(١) تفسير البقاعي (١/ ٤٨١) ط: دار الكتب العلمية.

جعل ذلك في أمة محمد ﷺ إلى قيام الساعة- له الحمد كثيرا)[١].

٢) قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ﴾ [سورة الحج:٤٠]

هذه الآية تشبه الآية التي قبلها، وهي واردة كذلك في سياق التدافع بين الحق والباطل، وفي سياق القتال في سبيل الله، كما قال ابن عطية ﷺ: (وقوله تعالى:﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ الآية، تقويةٌ للأمر بالقتال، وذِكْرُ الحجة بالمصلحة فيه، وذِكرُ أنه متقدم في الأمم، وبه صلحت الشرائع واجتمعت المتعبدات، فكأنه قال: أذن في القتال فليقاتل المؤمنون، ولولا القتال والجهاد لتغُلِّب على الحق في كل أمة. هذا أصوب تأويلات الآية، وقال مجاهد: ولولا دفع الله ظلم قوم لشهادة العدول ونحو هذا، وقالت فرقة: ولولا دفع الله ظلم الظلمة بعدل الولاة، وقال علي بن أبي طالب ﷺ: ولولا دفع الله بأصحاب محمد ﷺ الكفار عن التابعين فمن بعدهم. قال القاضي أبو محمد ﷺ: وهذا كله فيه دفع قوم بقوم إلا أن معنى القتال أليق بما تقدم من الآية.)[٢]

وقال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: (أي: لولا أنه يدفع عن قوم بقوم، ويكشف شر أناس عن غيرهم، بما يخلقه ويقدره من الأسباب، لفسدت الأرض، وأهلك القوي الضعيف)[٣].

(١) المحرر الوجيز: (١/ ٣٣٧-٣٣٨) لابن عطية.
(٢) المحرر الوجيز: (٤/ ١٢٤) لابن عطية، باختصار.
(٣) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٨٢).

والخلاصة أن الله سبحانه وتعالى لا يترك أهل الباطل يبغون في الأرض ويفسدونها دون أن يردعهم ويكف شرهم وعاديتهم، وقد يكون ذلك بتسليط المؤمنين عليهم كما في هذه الآية، فمتى وجدت كلمة أهل الباطل واحدة مجتمعة على الإفساد في الأرض والطغيان فيها فاعلم أن الله تعالى بالمرصاد، وأن دفْعهم قد اقترب.

٣) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة»، قال: «فينزل عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم، فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة»(١)

هذا الحديث الصحيح يدل على بقاء سنة التدافع إلى يوم القيامة، ويتضمن كذلك وجود الأعداء إلى يوم القيامة، فهو من الأحاديث المهمة في سنة التدافع بين الحق والباطل، وفيه: أن القتال في سبيل الله باقٍ إلى قيام الساعة.

٣- الأدلة على سنة المداولة:

١) قوله جَلّ شأنه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [سورة آل عمران:١٤٠].

هذه الآية هي الأصل في سنة المداولة، وهي تدلّ بلفظها وسياقها على أنها سنّة إلهية ماضية كما قال ابن عاشور رحمه الله: (والناس: البشر كلهم، **لأن هذا من السنن الكونية**، فلا يختص بالقوم المتحدث عنهم.)(٢)

(١) رواه مسلم: (١٥٦).

(٢) التحرير والتنوير: (٤/ ١٠٠) لابن عاشور.

وقال الطبري ﷺ: (ويعني بـ﴿ٱلنَّاسِ﴾، المسلمين والمشركين، وذلك أن الله عز وجل أدال المسلمين من المشركين ببدر، فقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين. وأدال المشركين من المسلمين بأحُد، فقتلوا منهم سبعين، سوى من جرحوا منهم)[(١)] .

وأمّا معنى المداولة فقال الطبري ﷺ: (ويعني بقوله: ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، نجعلها دُوَلا بين الناس مصرَّفة)[(٢)] وقال الواحدي: (والدولة: الكرة و«أدال الله فلانا من فلان» إذا جعل الكرة له عليه؛ يريد أنه أدال المسلمين من المشركين يوم بدر، وأدال المشركين من المسلمين يوم أحد.)[(٣)]

وقال ابن كثير في بيان الحِكَم المرتبطة بهذه المداولة في تفسيره لتتمة الآية: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قال ابن عباس -في مثل هذا- لنرى، أي: من يصبر على مناجزة الأعداء ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ يعني: يقتلون في سبيله، ويبذلون مهجهم في مرضاته. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٤١﴾ [آل عمران]، أي: يكفر عنهم من ذنوبهم، إن كان لهم ذنوب وإلا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به، وقوله: ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: فإنهم إذا ظفروا بغوا وبطروا فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم.)[(٤)]

(١) تفسير الطبري: (٦/ ٨٢).
(٢) تفسير الطبري: (٦/ ٨٢).
(٣) التفسير البسيط: (٦/ ١١) للواحدي.
(٤) تفسير ابن كثير: (٢/ ١١٠).

٢) **قوله** ﷻ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ﴾ [سورة محمد:٤]

هذه الآية متعلقة بسنة التدافع، وبسنة المداولة كذلك، وذلك لأن لفظ (البلاء) الوارد فيها يُشعر بالتداول والسجال في الحرب، كما قال الطبري ؒ: (ولو يشاء ربكم، ويريد لانتصر من هؤلاء المشركين الذين بين هذا الحكم فيهم بعقوبة منه لهم عاجلة، وكفاكم ذلك كله، ولكنه تعالى ذِكْره كره الانتصار منهم، وعقوبتهم عاجلا إلا بأيديكم أيها المؤمنون ﴿لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ يقول: ليختبركم بهم، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين، ويبلوهم بكم، فيعاقب بأيديكم من شاء منهم، ويتعظ من شاء منهم بمن أهلك بأيديكم من شاء منهم حتى ينيب إلى الحق)[1]

وقال السعدي ؒ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، **ومداولة الأيام بينهم**، وانتصار بعضهم على بعض ﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾ [سورة محمد:٤] فإنه تعالى على كل شيء قدير، وقادر على ألا ينتصر الكفار في موضع واحد أبدا، حتى يبيد المسلمون خضراءهم. ﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ ليقوم سوق الجهاد، ويتبين بذلك أحوال العباد، الصادق من الكاذب، وليؤمن من آمن إيمانا صحيحا عن بصيرة، لا إيمانا مبنيا على متابعة أهل الغلبة، فإنه إيمان ضعيف جدا، لا يكاد يستمر لصاحبه عند المحن والبلايا)[2].

(١) تفسير الطبري: (٢١/ ٢٨٩).

(٢) تفسير السعدي: (٧٨٤).

٣) قول هرقل لأبي سفيان: «وسَـأَلْتُكَ: هلْ قاتَلْتُمُوهُ فزَعَمْـتَ أنَّكُمْ قاتَلْتُمُوهُ، فَتَكُونُ الحَـرْبُ بيْنكُمْ وبيْنَهُ سِـجالًا يَنالُ مِنكُم وتَنالُونَ منه، وَكَذَلِكَ الرُّسُـلُ تُبْتَلَى ثُمَّ تَكُونُ لهـمُ العاقِبَةُ»(١).

هـذا النصّ يـدلّ عـلى معرفة أهـل الكتاب بسـنة المداولـة، وأنه مما بقـي عندهم مـن الحـق، فقـد علـم هرقل سـنة الله في رسـله وأعدائهـم، كما علم قبـل ذلك ورقة بـن نوفـل سـنة الله في الأنبيـاء أنهم لا بـد أن يُعادَوا.



(١) رواه البخاري: (٤٥٥٣).

رابعاً: علاقة هذه السنة بغيرها من السنن:

سبق الحديث في القواعد المنهجية العامة لفهم السنن الإلهية أهمية إدراك التداخل بين السنن والعلاقة بينها، وذلك كي لا يقع الناظر في سوء الفهم للواقع بالنظر إلى سنّة واحدة من السنن الإلهية دون إدراك لعلاقتها بغيرها من السنن فيقع في الخلل.

والمتأمل في سنة التدافع بين الحق والباطل يجد أنها مرتبطة بعدد من السنن الإلهية الأخرى، ومنها:

١ - سنّة الابتلاء للمؤمنين، وذلك أن الله سبحانه يبتلي المؤمنين بأعدائهم، فيسلطهم عليهم تارة وينصرهم عليهم تارة أخرى، فيتحقق بذلك حكم متعددة من أهمها: ابتلاء المؤمنين.

٢- سنة المداولة -كما سبق بيانها- وذلك أن هذا التدافع متقلب النتيجة، وليس محسوماً لأهل الحق في الحال وإن كان كذلك في المآل، وبإدراك ذلك يفهم المؤمن أن التدافع مقرون بالمداولة أولاً وهي مصحوبة بالابتلاء والتمحيص ثم يكون النصر بعد ذلك.

٣- سنة التمييز بين الحق والباطل، وذلك أنّ أظهر مقامات التمييز التي يذكرها الله في القرآن إنما هي في سياق التدافع بين الحق والباطل، كما ذكر الله ذلك في سورة آل عمران وسورة الأنفال[1].



(١) سورة آل عمران: (١٧٩)، سورة الأنفال: (٣٧).

خامساً: الحِكَم والمقاصد الربانية من هذه السنّن:

إن الله ﷻ حين بين لنا سننه، فقد بين لنا -كذلك- الحِكَم المرتبطة بها والمقاصد الغائية منها، وكما أن المتفقه في الأحكام الشرعية لا يتم فقهه إلا بإدراك مقاصدها، فكذلك الباحث في السنن الإلهية لا يتم فقهه إلا بفهم مقاصدها، وكما أن الفقه بمقاصد الأحكام الشرعية يعين على الإصابة عند الفتيا في النوازل الفقهية، فكذلك الفقه بمقاصد السنن يعين على الإصابة عند تنزيل السنن على الواقع، وأسأل الله سبحانه التوفيق لذكر شيء من الحكم المتعلقة بالسنن الإلهية.

تظهر في هذه السنّة الإلهية كثير من الحكم والمعاني المقاصدية العظيمة، ومنها:

١- إظهار معاني العبودية الخاصة لأولياء الله، ببذل الأموال والأرواح في سبيله، والصبر على الشدائد في ذات الله، والسعي لإقامة دين الله وجهاد أعدائه وإغاظتهم.

٢- دفع الفساد عن الأرض، وحفظ نظامها.

٣- تحقيق سنة الابتلاء للمؤمنين والتمحيص لهم.

٤- تحقيق سنة التمييز بين الحق والباطل والخبيث والطيب.

٥- اتخاذ الله شهداء من المؤمنين.

٦- تحقيق سنة نصر الله لأوليائه وإهلاكه لأعدائه؛ إذْ إن موجب كل منهما هو هذا التدافع وما يصحبه من المعاني والحكم.

٧- الإيمان بالحق لذاته لا لغلبة أهله.

٨- زيادة الحجة على الكافرين وظهور البيّنة والفرقان، وذلك كما في قوله سبحانه في سياق معركة بدر: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ [سورة الأنفال:٤٢]، قال البقاعي رحمه الله:

﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ﴾ أي: من الفريقين: الكفار في حالة القتال وبعدها، والمسلمين هلاكا متجاوزا وناشئا ﴿عَنۢ﴾ حالة ﴿بَيِّنَةٖ﴾ لما بان من صدق رسول الله ﷺ في هذه الوقعة في كل ما وعد به وكذب الكفار في كل ما كانوا يقولونه قاطعين به، مع أن ظاهر الحال يقضي لهم، فكان ذلك من أعظم المعجزات ﴿وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ﴾ أي: بالإسلام حياة هي في أعلى الكمال ﴿عَنۢ﴾ حالة ﴿بَيِّنَةٖ﴾ أي: كائنة بعد البيان في كون الكافرين على باطل والمؤمنين على حق لما سيأتي من أنهم كانوا يقولون: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ﴾ [سورة الأنفال:٤٩] فحينئذ تبين المغرور وكشفت عجائب المقدور عن أعين القلوب المستور.)(١)

٩- استحقاق المجرمين للعقاب والعذاب ببطرهم وكبرهم واستعلائهم على المؤمنين.



(١) تفسير البقاعي: (٨/ ٢٨٨ -٢٨٩) باختصار.

سادساً: الثمرات المترتبة على الوعي بهذه السنة:

١- الوعي بأنّ هذه سنة ماضية لن تزول ولو أظهر أهل الباطل تخليهم عنها، وهذا مهم في واقعنا اليوم كما سيأتي في تنزيل هذه السنة على الواقع.

٢- الاستعداد النفسي لمثل هذا الصراع، وعدم التفاجؤ به.

٣- الصبر، كما صبر من سبقنا عليها: قال الطبري ﷺ في تفسير قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة الفرقان:٣١]: (يقول: فاصبر لما نالك منهم كما صبر من قبلك أولو العزم من رسلنا.)(١)

٤- حسن الظن بالله، وذلك أن الذي يعي سنة التداول، لا يسيء الظن بربه حين يديل أهل الكفر على أهل الإسلام في بعض الجولات؛ لعلمه واستعداده المسبق.

٥- التفاؤل وتجنب اليأس والإحباط، وذلك لمعرفة أن أهل الإفساد في الأرض لا يدوم لهم حال، وأنه لا بد من دفعهم في سنة الله وميزانه.



(١) تفسير الطبري: (١٧/ ٤٤٤).

سابعاً: تنزيل هذه السنّة على الواقع:

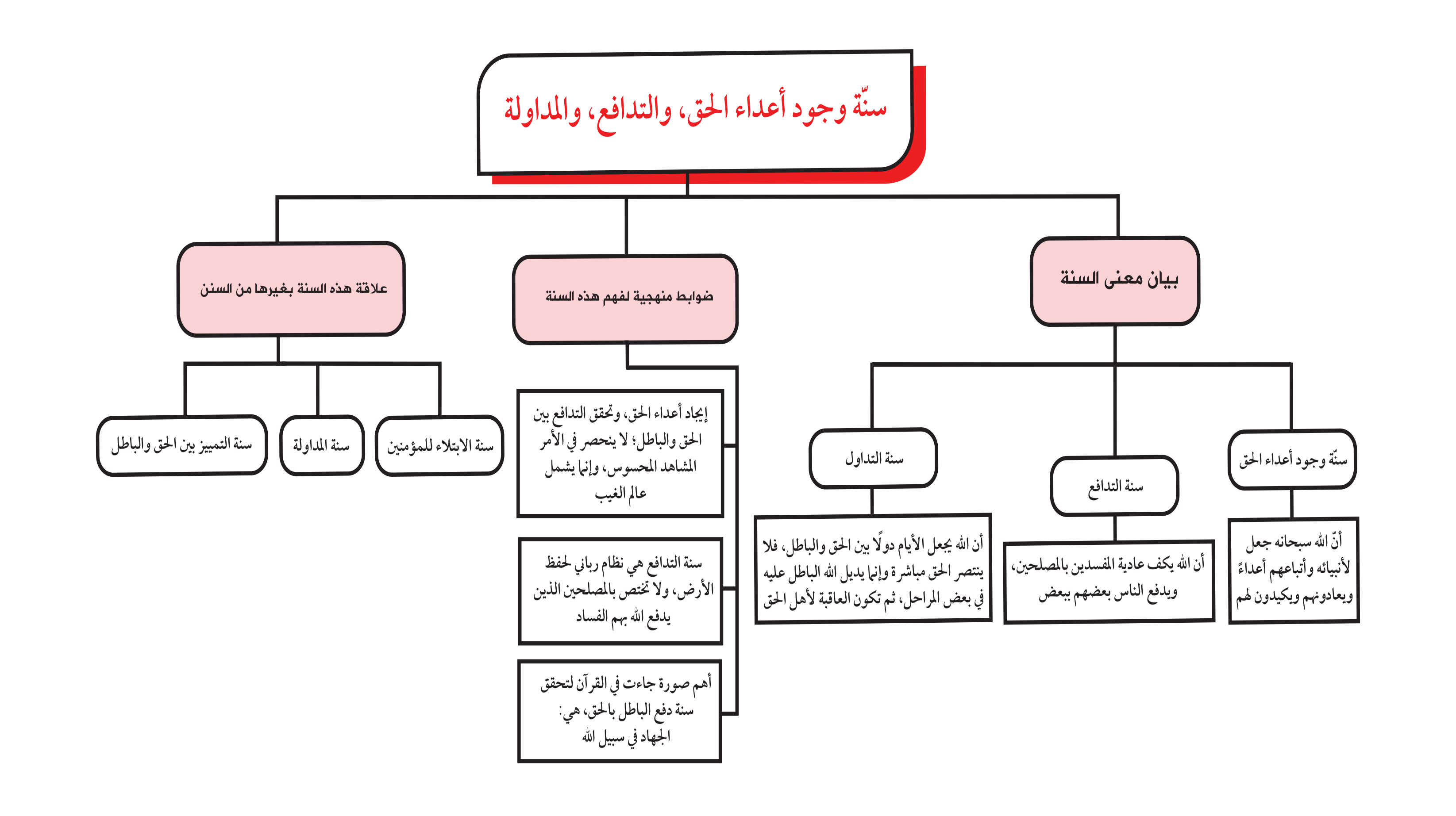
زعمت الأمم الكافرة في واقعنا اليوم تخليها عن العداء الناشئ عن اختلاف الأديان لأجل الدين، وزعمت أنها تحافظ على مواثيق حقوق الإنسان، والتزامهم بالمساواة التامة بين البشر، وأقاموا في سبيل ذلك المؤسسات الدولية الكبرى، والهيئات الأممية، والمحاكم والمنظمات والقوانين، وصدّق هذه الدعوى كثير من المسلمين، بل ورأوها الأنموذج البشري الأكمل، وأن العالم سيعيش في سلام حقيقي بعيداً عن أي صراع.

وهذا كله بسبب الجهل بحقائق الوحي التي أخبر فيها سبحانه عن أهل الباطل وسبيلهم، وبسبب الجهل بسنن الله ﷻ، الذي أخبرنا بدوام الصراع بين الحق والباطل، وأنه حيث وُجد الحق الخالص ووُجد حَمَلتُه الصادقون الداعون إليه فإن المصير الحتمي هو: وجود من يحاربه من أهل الباطل، وهذا ما رأيناه صريحاً واضحاً في زماننا الذي سَئِمت فيه أسماعنا من تكرار شعار (حقوق الإنسان) ثم رأينا هذه الأمم كيف تتكالب علينا، ورأينا كيف تُفرّق هذه الأمم بين المظلومين، فإذا كان المظلوم مسلماً سُنّياً فإنهم يتلكّؤون، ويسكتون، ويغضون الطرف، أو يبذلون القليل على استحياء، وقد يقفون مع العدوّ إما صراحةً أو من وراء حُجُب، كما حصل لإخواننا في سوريا من ظلم شديد وقهر واستضعاف وسلب لكافة الحقوق البشرية -بل حتى الحيوانية-، وأما إذا كان الـمُحارَب يهودياً فإنهم يسارعون إلى النصرة بالسلاح والعتاد والرجال والأموال والإعلام والتبرير القانوني ويصطفّون معهم في ظلمهم، كما حصل في غزّة هذا العام (١٤٤٥-٢٠٢٣) مع كونهم كذبوا في تصوير اليهود

بأنهم مظلومون، فهم محتلّون غاصبون أصلاً، ولكنهم رسموا لهم صورة المظلوم في الإعلام العالمي، وخرج رئيس أمريكا وردد بعض الكذبات في قتل أطفال اليهود ونحو ذلك، وتكالبت الدول الأوربية على نصرة اليهود، وعلى محاربة الحقوق التي دعوا إليها كل القرون الماضية، فحاربوا حتى من يرفع علم فلسطين في المظاهرات في بلدانهم، ثم سارعوا من أول الأيام إلى إرسال بارجاتهم وغواصاتهم النووية لنصرة اليهود الغاصبين -المظلومين بادعائهم-، وتداعت الدول الغربية على أهلنا في غزة كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، وهكذا فعلوا مع أوليائهم الأوكرانيّين الكفار، سارعوا إلى نصرتهم والوقوف معهم بالسلاح والعتاد.

وأما المسلمون في سوريا الذين تُصَب على رؤوسهم كل آلات الجحيم، والمسلمون في الهند الذين يسامون على أيدي الهندوس سوء العذاب، والمسلمون في فلسطين الذين احتُلّت أرضهم ودُنّسَت مقدّساتهم، فإنهم يَتَجاهَلونهم، بل وكثيراً ما يقفون ضدهم، والله المستعان، ولا تجدهم يسارعون إلى شيء من النصرة لهم إلا إذا تحققت مصلحتهم المحضة في ذلك، وهذا كله على الحقيقة ليس بمستغرب عند من يفهم سنن الله تعالى، ويفقه سبيل المجرمين الذي بينه في كتابه، وأما البعيدون عن هذا الوعي، المفتونون بأحلام السلام، فقد أصيبت أحلامهم في مقتل مع حرب غزة، حين رأوا أعلى صور الانتهاكات وأشدها، وشاهدوا الكفر بحقوق الإنسان وكل قيم الحرية التي تأسست عليها.

* ❁ *


سنّة وجود أعداء الحق، والتدافع، والمداولة
بيان معنى السنة
سنّة وجود أعداء الحق
أنّ الله سبحانه جعل لأنبيائه وأتباعهم أعداءً ويعادونهم ويكيدون لهم
سنة التدافع
أن الله يكف عادية المفسدين بالمصلحين، ويدفع الناس بعضهم ببعض
سنة التداول
أن الله يجعل الأيام دولًا بين الحق والباطل، فلا ينتصر الحق مباشرة وإنما يديل الله الباطل عليه في بعض المراحل، ثم تكون العاقبة لأهل الحق
ضوابط منهجية لفهم هذه السنة
إيجاد أعداء الحق، وتحقق التدافع بين الحق والباطل؛ لا ينحصر في الأمر المشاهد المحسوس، وإنما يشمل عالم الغيب
سنة التدافع هي نظام رباني لحفظ الأرض، ولا تختص بالمصلحين الذين يدفع الله بهم الفساد
أهم صورة جاءت في القرآن لتحقق سنة دفع الباطل بالحق، هي: الجهاد في سبيل الله
علاقة هذه السنة بغيرها من السنن
سنة الابتلاء للمؤمنين
سنة المداولة
سنة التمييز بين الحق والباطل

سنة وجود أعداء الحق، والتدافع، والمداولة

تابع 1

أدلة هذه السنة من الوحي

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١)﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾

«لم يأتِ رجلٌ قطُّ بمثل ما جئت به إلّا عودي»

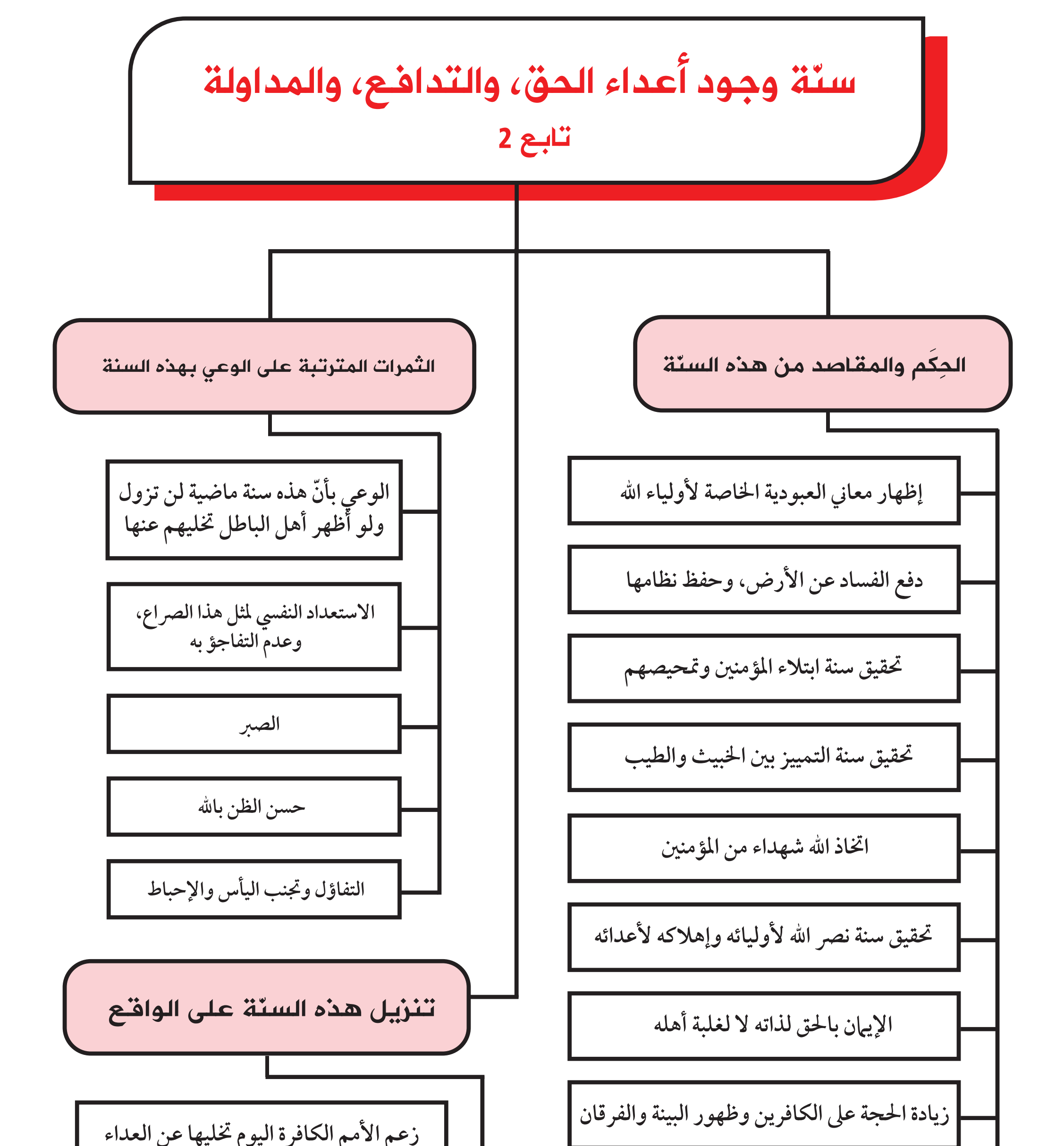
﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾

«لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة؛ فينزل عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم، فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة»

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ﴾

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ﴾

«وسَأَلْتُكَ: هلْ قاتَلْتُمُوهُ فَزَعَمْتَ أنَّكُمْ قاتَلْتُمُوهُ، فَتَكُونُ الحَرْبُ بيْنَكُمْ وبيْنَهُ سِجالًا يَنالُ مِنكُم وتَنالُونَ منه، وكَذلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى ثُمَّ تَكُونُ لهمُ العاقِبَةُ»



سنّة وجود أعداء الحق، والتدافع، والمداولة
تابع 2
الحِكَم والمقاصد من هذه السنّة
إظهار معاني العبودية الخاصة لأولياء الله
دفع الفساد عن الأرض، وحفظ نظامها
تحقيق سنة ابتلاء المؤمنين وتمحيصهم
تحقيق سنة التمييز بين الخبيث والطيب
اتخاذ الله شهداء من المؤمنين
تحقيق سنة نصر الله لأوليائه وإهلاكه لأعدائه
الإيمان بالحق لذاته لا لغلبة أهله
زيادة الحجة على الكافرين وظهور البينة والفرقان
استحقاق المجرمين للعقاب والعذاب
الثمرات المترتبة على الوعي بهذه السنة
الوعي بأنّ هذه سنة ماضية لن تزول ولو أظهر أهل الباطل تخليهم عنها
الاستعداد النفسي لمثل هذا الصراع، وعدم التفاجؤ به
الصبر
حسن الظن بالله
التفاؤل وتجنب اليأس والإحباط
تنزيل هذه السنّة على الواقع
زعم الأمم الكافرة اليوم تخليها عن العداء الديني، وتصديق هذه الدعوى ممن يجهل حقائق الوحي من المسلمين، فمتى وُجد الحق؛ فسيوجد حتمًا من أهل الباطل من يحاربه
سقوط شعارات (حقوق الإنسان) إذا كان المُحارَب مسلمًا سنيًا، مع المسارعة في نصرة اليهود ونحوهم

السُّنَّةُ الثانية:

سنة الابتلاء

السنة الثانية

سنة الابتلاء

أولاً: بيان معنى السنة:

المقصود بهذه السنة: أن الله ﷻ يُديم امتحان عباده المؤمنين وابتلاءهم بأنواع المصاعب، من الجوع والخوف ونقص الأموال والأنفس والثمرات، ومن البأساء والضراء وزلزلة الأعداء، حتى يعلم الصادق في إيمانه من الكاذب، وحتى يَمِيْزَ الخبيث من الطيب.



ثانياً: ضوابط منهجية لفهم هذه السنة:

١- هذه السنة ماضية على الأفراد المؤمنين وعلى الجماعات المؤمنة، فهي سنة شاملة لا يُفلت منها أحد، غير أن لها في سياقها الجماعي صوراً وحِكَماً أكثر من صورها وحِكَمها في السياق الفردي، ومن ذلك مثلاً: حكمة التمييز بين الخبيث والطيب، وبين المؤمن والمنافق، فهذا لا يكون إلا بالابتلاءات الجماعية؛ لأن ثمرتها مرتبطة بالتمييز داخل الصف المسلم، والتنقية له والتصفية بإخراج المنافقين منه، وإن كانت الابتلاءات الفردية تُظهر الصادق في إيمانه من الكاذب، إلا أنها غير الابتلاءات التي تُميّز الصف. والمقصود الأكبر في هذا الكتاب: تناول السنن من حيث تعلقها بالجماعات والأمم أكثر من تناولها من حيث تعلقها بالأفراد.

٢- هذه السنة أصلٌ للسنن الإلهية المتعلقة بالمؤمنين، فبقية السنن تتفرع عنها، أو تترتب عليها، فسنة النصر وسنة التمكين ووراثة الأرض كلها لا تكون إلا بعد تحقق سنة الابتلاء، ولذلك فإنها مما ينبغي أن تكون محلّ عناية بالغة من المؤمن.

٣- أنّ هذه السنة لا تتعلق بمرحلة الاستضعاف وحدها، بل هي مستمرة، فهناك ابتلاء في مرحلة الاستضعاف التام، وفي مرحلة الاستضعاف الجزئي، وابتلاءات في التدافع بالقتال مع أهل الباطل، وابتلاءات في ثنايا النصر المرحلي، وتأتي كذلك بعد النصر التام والتمكين، كما قال سبحانه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأعراف:١٢٩] فهي سنة مُلازمة للمؤمنين، وإن كانت تتنوع صورها ودرجاتها.

٤- لا تنحصر سنة الابتلاء في الشدائد من البأساء والضراء وزلزلة الأعداء، بل قد يأتي الابتلاء على المؤمنين بالخير والحسنات والسرّاء، كما قال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [سورة الأنبياء:٣٥]، ولذلك فإن أشد ما خشيه النبي ﷺ على أصحابه من بعده أن تفتح عليهم الدنيا فيتنافسوها فتهلكهم[(١)].

٥- الابتلاء قد يكون بالأقدار المؤلمة وقد يكون بالتكليف بالأمور المكروهة كالقتال، وكلها تأتي في سياق التدافع مع الباطل أكثر من غيرها.

٦- الأدلة الواردة في سنة الابتلاء على نوعين:

الأول: الأدلة التي فيها بيان كون الابتلاء سنة ماضية.

الثاني: الأدلة المتضمنة لكثير من الأمثلة على ابتلاء المؤمنين من الأنبياء وأتباعهم، مما يدل على أن ذلك سنة ماضية. ولا يتم فهم سنة الابتلاء على وجهها إلا بالجمع بين النوعين من الأدلة وتتبعها.



(١) انظر: صحيح البخاري: (٤٠١٥)، وصحيح مسلم: (٢٩٦١).

ثالثاً: أدلة هذه السنة من الوحي، وبيان معنى هذه الأدلة وتحرير كلام المفسرين حولها:

الأدلة على هذه السنة من الوحي كثيرة جداً، ومنها:

١- قوله ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [سورة البقرة:٢١٤]

هذه الآية أصل مُحكَم في بيان سنة الابتلاء، وفيها فوائد كثيرة يحسن إفرادها في رسالة مستقلة، وسأذكر هنا أهم كلام المفسرين حولها، وبيانهم كونها سنة ماضية مستمرة.

قال الطبري ﵀ في تفسير الآية: (معنى الكلام: أم حسبتم أنكم أيها المؤمنون بالله ورسله تدخلون الجنة، ولم يصبكم مثلُ ما أصاب مَن قبلكم مِن أتباع الأنبياء والرسل من الشدائد والمحن والاختبار، فتُبتَلوا بها ابتُلوا واختبروا به من ﴿ٱلْبَأْسَآءُ﴾ وهو شدة الحاجة والفاقة ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ وهي العلل والأوصاب، ولم تزلزلوا زلزالهم، يعني: ولم يصبهم من أعدائهم من الخوف والرعب شدة وجهدٌ حتى يستبطئ القوم نصر الله إياهم، فيقولون: متى الله ناصرنا؟ ثم أخبرهم الله أن نصره منهم قريبٌ، وأنه مُعليهم على عدوِّهم، ومظهرهم عليه، فنجَّز لهم ما وعدهم، وأعلى كلمتهم، وأطفأ نار حرب الذين كفروا)[1].

---

(١) تفسير الطبري: (٣/ ٦٣٦).

وقال الشيخ ابن سعدي في تفسير الآية مبيّناً كونها سنة ثابتة: (أخبر تبارك وتعالى أنه لا بد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة كما فعل بمن قبلهم، **فهي سنته الجارية، التي لا تتغير ولا تتبدل**، أن من قام بدينه وشرعه، لا بد أن يبتليه، فإن صبر على أمر الله، ولم يبال بالمكاره الواقفة في سبيله، فهو الصادق الذي قد نال من السعادة كمالها، ومن السيادة آلتها.

ومن جعل فتنة الناس كعذاب الله، بأن صدته المكاره عما هو بصدده، وثنته المحن عن مقصده، فهو الكاذب في دعوى الإيمان، فإنه ليس الإيمان بالتحلي والتمني، ومجرد الدعاوى، حتى تصدقه الأعمال أو تكذبه. فقد جرى على الأمم الأقدمين ما ذكر الله عنهم ﴿مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ﴾ أي: الفقر ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ أي: الأمراض في أبدانهم ﴿وَزُلۡزِلُواْ﴾ بأنواع المخاوف من التهديد بالقتل، والنفي، وأخذ الأموال، وقتل الأحبة، وأنواع المضار حتى وصلت بهم الحال، وآل بهم الزلزال، إلى أن استبطأوا نصر الله مع يقينهم به)[(١)].

وكذلك قال ابن عاشور ﵀: (وتَطرُّق هاته الحالة **سنة من سنن الله تعالى في أتباع الرسل** في أول ظهور الدين وذلك من أسباب مزيد فضائل أتباع الرسل، فلذلك هيئ المسلمون لتلقيه من قبل وقوعه لطفا بهم ليكون حصوله أهون عليهم.

وقد لقي المسلمون في صدر الإسلام من أذى المشركين البأساء والضراء وأخرجوا من ديارهم وتحملوا مضض الغربة، فلما وردوا المدينة لقوا من أذى اليهود في أنفسهم وأذى المشركين في قرابتهم وأموالهم بمكة ما كدر عليهم صفو حفاوة الأنصار بهم، كما أن الأنصار لقوا من ذلك شدة المضايقة في

(١) تفسير السعدي: (٩٦).

ديارهم بل وفي أموالهم فقد كان الأنصار يعرضون على المهاجرين أن يتنازلوا لهم عن حظ من أموالهم)[١].

٢- **قوله** ﷻ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [سورة محمد:٣١]، **وقوله** ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة آل عمران:١٤٢]، **وقوله** ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة التوبة:١٦]

هذه الآيات العظيمة فيها معنى الابتلاء بالتكليف بالجهاد في سبيل الله، وهذا التكليف الشرعي مرتبط بالأمر القدري القاضي بإيجاد الأعداء وسعيهم في محاربة الحق، وفيها أن المؤمنين لن يُتركوا حتى يُبتلوا بهذا الابتلاء. والـمُلاحظ أن هذه الآيات قد تكررت عليهم في أوقات مختلفة، مما يدل على استمرار هذا المعنى وعدم سقوطه بالمرة والمرتين، فهذه الآيات فيها ما نزل في سورة التوبة وهي متعلقة بغزوة تبوك في آخر زمن النبي ﷺ، وقد أتت بنفس الأسلوب الذي جاء في أول المرحلة المدنية في آية البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ وبنفس أسلوب آية آل عمران التي نزلت في أحداث يوم أُحُد: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾.

قال الطبري ؒ: (يقول تعالى ذكْره لأهل الإيمان به من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أيها المؤمنون، بالقتل، وجهاد أعداء الله، ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ﴾ يقول: حتى يُعلَم حزبي وأوليائي أهل الجهاد في الله منكم، وأهل الصبر على قتال أعدائه، فيظهر ذلك لهم، ويُعرف

(١) التحرير والتنوير: (٢/ ٣١٥) لابن عاشور.

ذوو البصائر منكم في دينه من ذوي الشك والحيرة فيه وأهل الإيمان من أهل النفاق ونبلو أخباركم، فنعرف الصادق منكم من الكاذب.)[١]

وقال في تفسير آية التوبة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾، أيها المؤمنون أن يترككم الله بغير محنة يمتحنكم بها، وبغير اختبار يختبركم به، فيعرف الصادقَ منكم في دينه من الكاذب فيه ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ﴾ يقول: أحسبتم أن تتركوا بغير اختبار يعرف به أهل ولايته المجاهدين منكم في سبيله، من المضيِّعين أمرَ الله في ذلك المفرِّطين﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ﴾ يقول: ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم، والذين لم يتخذوا من دون الله ولا من دون رسوله ولا من دون المؤمنين ﴿وَلِيجَةً﴾ وإنما عنى بها في هذا الموضع: البطانة من المشركين. نهى الله المؤمنين أن يتخذوا من عدوهم من المشركين أولياء، يفشون إليهم أسرارهم ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، يقول: والله ذو خبرة بما تعملون، من اتخاذكم من دون الله ودون رسوله والمؤمنين به أولياءَ وبطانةً، بعد ما قد نهاكم عنه، لا يخفى ذلك عليه، ولا غيره من أعمالكم، والله مجازيكم على ذلك، إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًّا فشرًّا)[٢].

وقال السعدي في آية سورة محمد ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة محمد:٣١] مبيّنا كون هذا الابتلاء بالتكليف لا بالمصيبة-: (ثم ذكر أعظم امتحان يمتحن به عباده، وهو الجهاد في سبيل الله، فقال:﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي: نختبر إيمانكم وصبركم، ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [سورة محمد:٣١] فمن امتثل أمر الله وجاهد في سبيل الله

---

(١) تفسير الطبري: (٢١/ ٢٢٣).

(٢) تفسير الطبري: (١١/ ٣٧٢ – ٣٧٣) بتصرف يسير.

لنصر دينه وإعلاء كلمته فهو المؤمن حقا، ومن تكاسل عن ذلك، كان ذلك نقصا في إيمانه)[1].

٣- قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة الأنعام:٣٤].

هذه الآية فيها بيان لسنة الله في أنبيائه ورسله، أنه يبتليهم بتكذيب أقوامهم لهم، وبأذيتهم إياهم، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا، حتى أتاهم نصره، وكان هذا الخطاب للنبي ﷺ، ليسلك الله به مسلك الأنبياء قبله، فيُبتلى كما ابتُلوا، ويؤذى كما أوذوا، ويصبر كما صبروا، كما قال الطبري ؒ: (وهذا تسلية من الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، وتعزيةٌ له عما ناله من المساءة بتكذيب قومه إيّاه على ما جاءهم به من الحق من عند الله.

يقول تعالى ذكره: إنْ يكذبك، يا محمد، هؤلاء المشركون من قومك، فيجحدوا نبوّتك، وينكروا آيات الله أنّها من عنده، فلا يحزنك ذلك، واصبر على تكذيبهم إياك وما تلقى منهم من المكروه في ذات الله، حتى يأتي نصر الله، فقد كُذبت رسلٌ من قبلك أرسلتهم إلى أممهم، فنالوهم بمكروه، فصبروا على تكذيب قومهم إياهم، ولم يثنهم ذلك من المضيّ لأمر الله الذي أمرهم به من دعاء قومهم إليه، حتى حكم الله بينهم وبينهم ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾، يقول: ولا مغيِّر لكلمات الله. وكلماتُه تعالى ذِكره: ما أنزل الله إلى نبيه محمد ﷺ، من وعده إياه النصر على من خَالفه وضادّه، والظفرَ على من تولّى عنه وأدبر ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يقول: ولقد جاءك يا محمد، من خبر من كان قبلك من الرسل، وخبر أممهم، وما صنعتُ بهم حين جحدوا آياتي وتمادَوا في غيهم

(١) تفسير السعدي: (٧٨٩).

وضلالهم: أنباء، وتَرَك ذكر «أنباء»، لدلالة «مِنْ» عليها. يقول تعالى ذكره: فانتظر أنت أيضًا من النصرة والظفر مثل الذي كان منِّي فيمن كان قبلك من الرسل إذ كذبهم قومهم، واقتد بهم في صبرهم على ما لَقُوا من قومهم)[(١)].

وقال ابن عاشور مبيّنا الإشارة إلى السنن من خلال الآية من جُملة: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قال: (ويجوز أن تكون كلمات الله ما كتبه في أزله وقدره من سننه في الأمم، أي أن إهلاك المكذبين يقع كما وقع إهلاك من قبلهم)[(٢)].

❊ ❁ ❊

(١) تفسير الطبري: (٩/ ٢٢٤).

(٢) التحرير والتنوير: (٧/ ٢٠٢).

رابعاً: علاقة هذه السنة بغيرها من السنن:

هذه السنة أصلٌ من أصول السنن كما تقدم، وهي مرتبطة بمنظومة السنن من مختلف جهاتها:

١- فهي أثر من أهم آثار سنة الإملاء والإمهال للمجرمين.

٢- وهي متصلة بسنة الإهلاك للظالمين؛ لأن إهلاكهم له موجبات، من أهمها: التسلط على المؤمنين واستضعافهم بالقتل والسجن والتعذيب.

٣- وهي متعلقة بسنة التدافع كذلك.

٤- كما أن لها ارتباطاً وثيقاً بسنة المداولة التي لا بد فيها من الآلام والشدائد على المؤمنين.

٥- وهي الطريقة التي يحقق الله بها **سنة التمييز بين الخبيث والطيب، والمؤمن والمنافق** داخل الصف المسلم، كما قال سبحانه: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [سورة آل عمران:١٧٩] قال الطبري رحمه الله مبيناً العلاقة بين هذا التمييز وبين الابتلاء:

(يعني بقوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ما كان الله ليدع المؤمنين ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من التباس المؤمن منكم بالمنافق، فلا يعرف هذا من هذا ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ يعني بذلك: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ﴾ وهو المنافق المستسرُّ للكفر ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، وهو المؤمن المخلص الصادق الإيمان، بالمحن والاختبار، كما ميَّز بينهم يوم أحد عند لقاء العدوّ عند خروجهم إليهم)[١].

(١) تفسير الطبري: (٦/ ٢٦٢).

٦- ولسنة الابتلاء تعلق كذلك بسنة الاستبدال، من جهة كون هذا الاستبدال يأتي بعد الابتلاء بالتكليف بالجهاد، وهي السنة القاضية بإبدال الله تعالى القوم المقصرين من المؤمنين في الاستجابة له في نصرة دينه والإنفاق في سبيله بقوم آخرين يستجيبون وينفقون، وقد تأتي هذه السنة في إبدال المرتدين بالمؤمنين، فتكون سنة شاملة للمؤمنين والكافرين.

قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾

[سورة التوبة:٣٨-٣٩].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: (يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أصحاب رسوله، متوعِّدَهم على ترك النَّفْر إلى عدوّهم من الروم: إن لم تنفروا، أيها المؤمنون، إلى من استنفركم رسول الله، يعذّبكم الله عاجلا في الدنيا، بترككم النَّفْر إليهم، عذابًا مُوجعًا﴿وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ يقول: يستبدل الله بكم نبيَّه قومًا غيرَكم، ينفرون إذا استنفروا، ويجيبونه إذا دعوا، ويطيعون الله ورسوله﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗا﴾، يقول: ولا تضروا الله، بترككم النّفير ومعصيتكم إياه شيئًا، لأنه لا حاجة به إليكم، بل أنتم أهل الحاجة إليه، وهو الغني عنكم وأنتم الفقراء﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، يقول جل ثناؤه: والله على إهلاككم واستبدال قوم غيركم بكم، وعلى كل ما يشاء من الأشياء، قدير)[1].

(١) تفسير الطبري: (١١/ ٤٦٠ - ٤٦١).

وقد ذكر بعض العلماء ما يُفهَم منه أن الاستبدال سنّة ماضية، كما قال ابن رجب عن ابن تيمية رحمهما الله تعالى: «وَقَدْ سَافَرَ الشَّيْخُ مَرَّةً عَلَى البَرِيْدِ إِلَى الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ يَسْتَنْفِرُ السُّلْطَانَ عِنْدَ مجَيْءِ التَّتَرِ سَنَةً مِنَ السِّنِيْنَ، وَتَلَا عَلَيْهِمْ آيَاتِ الجِهَادِ، وَقَالَ: إِنْ تخَلَّيْتُمْ عَنِ الشَّامِ، وَنُصْرَةِ أَهْلِهِ، وَالذَّبِّ عَنْهُمْ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُقِيْمُ لَهُمْ مَنْ يَنْصُرُهُمْ غَيْرَكُمْ، وَيَسْتَبْدِلُ بِكُم سِوَاكُمْ، وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾، وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾. وَبَلَغَ ذلِكَ الشَّيْخَ تَقِيَّ الدِّيْنِ بنَ دَقِيْقِ العِيْدِ –وَكَانَ هُوَ القَاضِي حِيْنَئِذٍ– فَاسْتَحْسَنَ ذلِكَ، وَأَعْجَبَهُ هَذَا الاسْتِنْبَاطُ، وَتَعَجَّبَ مِنْ مُوَاجَهَةِ الشَّيْخِ لِلسُّلْطَانِ بِمِثْلِ هَذَا الكَلَامِ»[1].

وكذلك ذكر ابن كثير ﵀ ما يُفهَم منه كون الاستبدال سنّة، وذلك في تفسيره لقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [سورة المائدة:٥٤] قال: (يقول تعالى مخبرا عن قدرته العظيمة أن من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته، فإن الله يستبدل به من هو خير لها منه وأشد منعة وأقوم سبيلا كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾[سورة محمد:٣٨] وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ [سورة النساء:١٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة إبراهيم:١٩-٢٠].

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٥/ ٤١٠).

أي: بممتنع ولا صعب. وقال تعالى هاهنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ [سورة المائدة:٥٤] أي: يرجع عن الحق إلى الباطل)(١).

٧- وسنة الابتلاء شرط لتحقيق سنة النصر التي لا تأتي إلا بعد الابتلاء، كما قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [سورة يوسف:١١٠].

وها أنت تلاحظ مركزية هذه السنة ومحوريتها في سياق السنن الإلهية.

❊ ❊ ❊

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ١٢٣).

خامساً: الحِكَم والمقاصد من هذه السنّة:

الحِكَم والمقاصد المترتبة على سنة الابتلاء كثيرة، وسبق ذكر أكثرها عند سنة التدافع وسنة المداولة، ويُمكن لنا أن نقول بإجمال:

إن الحِكَمَ والمقاصد من سنة الابتلاء متعلقة بأساس إيجاد البشر على هذه الأرض، كما قال الله سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة الملك:٢] وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة هود:٧] وقال سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [سورة الإنسان:٢].

فهذه الآيات تبين ارتباط الابتلاء بالحكمة من إيجاد البشر على هذه الأرض، وبإدراك هذه الحقيقة يتهيأ المؤمن لإدراك الحكم والمقاصد المتعلقة بالابتلاءات الخاصة بالمؤمنين.

وأما الحِكم الخاصة المتعلقة بابتلاء المؤمنين فهي كثيرة، منها:

١- اختبار صدق المؤمن في ادعائه الإيمان: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٣﴾ [سورة العنكبوت:٣]. وهذه الآية تشمل الابتلاءات الفردية والجماعية، العامة والخاصة، وتشمل أنواع الابتلاءات، فهي عامة شاملة.

٢- ظهور معاني الإيمان وعلاماته ومقتضياته، من الثبات والصبر والجهاد، كما قال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [سورة محمد:٣١] وقال ابن كثير في قوله سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [سورة آل

عمران:١٤٠]: (لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء)[1] فهذه من أهم الحكم التي يُقدر الله لأجلها البلاء.

٣- أن يتخذ الله من المؤمنين الشهداء، وقد تقدم ذلك في سنة المداولة.

٤- تمييز الصف الإسلامي، وإظهار المنافقين المختبئين تحت ستار الرخاء والأمن بتقدير الخوف والشدة واللأواء.

٥- تهيئة المؤمنين للنصر بعد التمحيص والتنقية.

٦- إيجاد أسباب استحقاق الكفار لمزيد من العذاب، وألا يكون لهم حظ في الآخرة.

إلى غير ذلك من الحكم.

* ❁ *

(١) تفسير ابن كثير: (٢/ ١١٠) باختصار.

سادساً: الثمرات المترتبة على الوعي بهذه السنة:

١- التهيؤ والاستعداد النفسي للابتلاءات والشدائد وعدم التفاجؤ بها.

٢- إحسان الظن بالله عند نزول البلاء واشتداده؛ وذلك لأن لدى المؤمن استعداداً مسبقا لذلك، ومن الملاحظ على كثير من ضعاف الإيمان اليوم ممن لا يعرفون حِكَم الله من أقداره، أنهم يضطرب إيمانهم عند رؤية الابتلاءات الشديدة على غيرهم -فضلاً عما لو رأوها في أنفسهم-، فتجدهم يتساءلون بعد كل حرب يُقتل فيها الضعفاء والأبرياء: «أين الله عنهم؟ ولماذا لا يمنع هذه المصائب؟» وهذا كله نتيجة عدم الفقه بسنن الله وأقداره التي يجريها على عباده، والتي بينها في مواضع كثيرة من كتابه.

٣- الصبر والثبات وعدم الانكسار والهزيمة، خاصة إذا كان المؤمن على تمام الاستحضار لتحقق هذه السنة على الأمم السابقة، فيصبر اقتداء بهم، واستئناسا بأحوالهم.

٤- تحقيق العبودية لله تعالى على جميع الأحوال وعدم الركون إلى الدنيا والافتتان بها عند النصر؛ للإيمان بأن الابتلاء مستمر على طول الطريق، وأنه يكون بالسراء كما يكون بالضراء، ويكون بعد التمكين كما كان زمن الاستضعاف.

❋ ❁ ❋

سابعاً: تنزيل هذه السنّة على الواقع:

الأمة الإسلامية اليوم تعيش مرحلة ابتلاءات شديدة، وقد يكون كثير منها عقوبات على الغفلة وترك القيام بالدين والقعود عن السعي لإعلاء كلمة الله، وأهم ما ينبغي أن نستفيده من هذه الشدائد: الرجوع إلى الله تعالى، وترك الغفلة، والسعي لإقامة الدين ومجاهدة أعداء الله، وإلا فستبقى هذه الشدائد ويظل هذا الذلّ ملازماً، حتى يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه يقومون بدينه.

ومن المهم أن نعي أن كون الأمة تعيش في مرحلة ابتلاء عامة -بتسلط أعدائها عليها- أن ذلك يستلزم أنواعاً لا تحصى من المشكلات الفرعية والجزئية طالما أن عنوان المرحلة العام هو الاستضعاف والبلاء؛ إذ إن انعكاسات الاستضعاف لا تنحصر في القتل والتعذيب والتهجير، بل تظهر كذلك في العبادة والتعليم والدعوة والإصلاح، كما كان في زمن فرعون حين استضعف بني إسرائيل؛ وتأمَّل ما قاله الشيخ ابن سعدي ﵀ حول هذه القضية بعبارة مختصرة ولكنها مهمة جدا، فقد ذكر في تفسيره لقوله ﷻ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [سورة القصص:٥] قال: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ في الدين، وذلك لا يحصل مع استضعاف، بل لا بد من تمكين في الأرض، وقدرة تامة)[١]

والمقصود أنّ فهم مرحلة الابتلاء العام يعين على فهم آثار هذه المرحلة وانعكاساتها على كل شيء، وهذا لا يعني الاستسلام بطبيعة الحال، وإنما يعني الحرص على اتخاذ ما يمكن من الأسباب للانتهاض، بشرط ألا يُظَن أن هذا

(١) تفسير السعدي: ٦١١

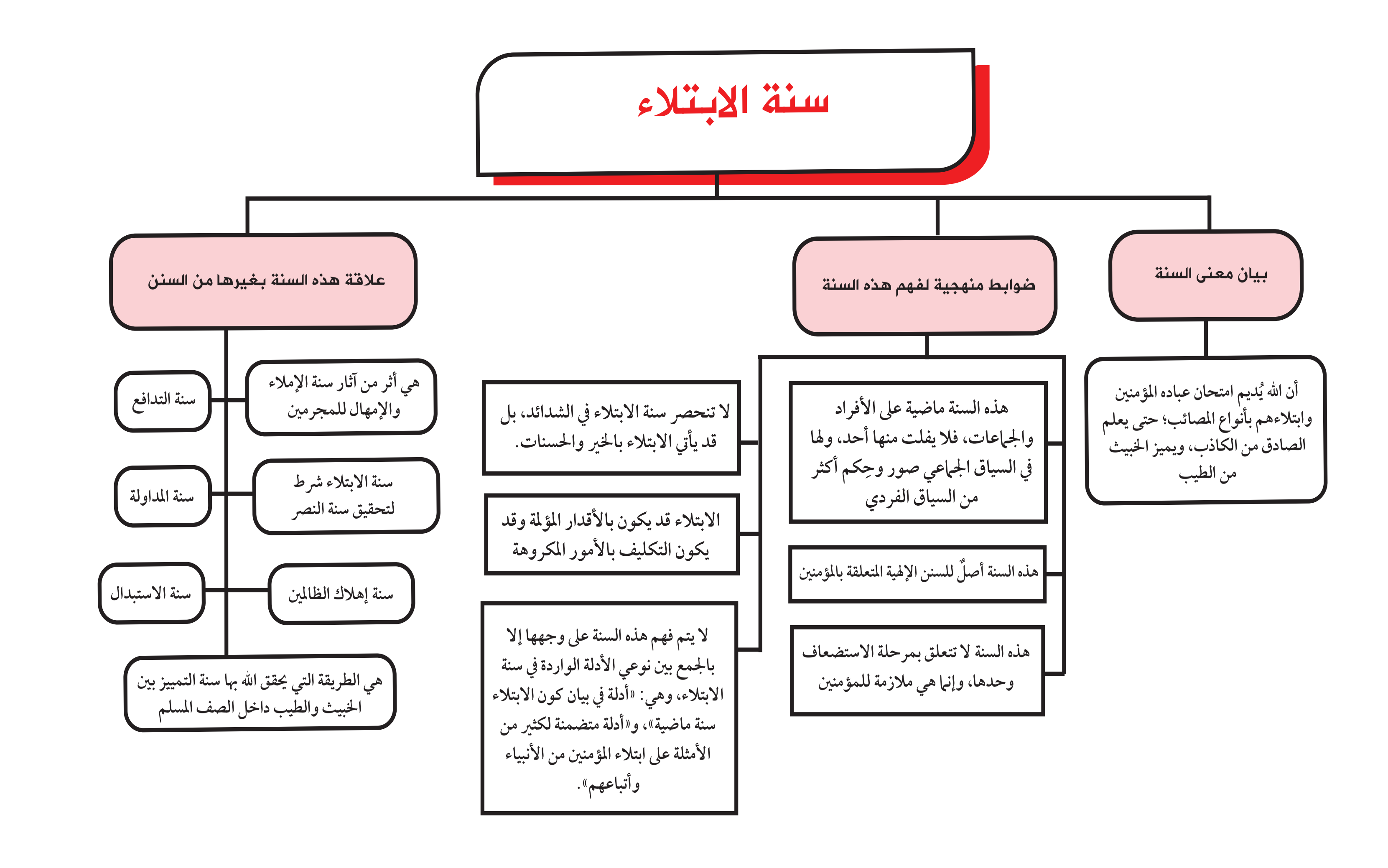
السعي سيثمر النّصر العام مباشرة، فلا بد من تدافع شديد قبله.

وهذا التدافع وإن كان قد حصل في بعض الأقطار، حتى وصل إلى النصر، ولكنه نصر محكوم بِسِمَة المرحلة العامة، فحتى الذين انتصروا في بلادهم كإخواننا في أفغانستان تجدهم عاجزين عن نصرة إخوانهم المستضعفين في فلسطين وغيرها؛ لأن هذه سمة مراحل الاستضعاف والابتلاء،

غير أنني أقول بكل ارتياح: إننا على أعتاب مغادرة مرحلة الاستضعاف والابتلاء الشمولي هذه، إلى مرحلة تدافع أوسع من سابقاتها -والله تعالى أعلم-، وأن على الأمة الاستعداد لذلك بقدر ما يمكنها، وخاصة بالعناية بالأجيال الصاعدة.

والله المستعان وعليه التكلان.




سنة الابتلاء
بيان معنى السنة
أن الله يُديم امتحان عباده المؤمنين وابتلاءهم بأنواع المصائب؛ حتى يعلم الصادق من الكاذب، ويميز الخبيث من الطيب
ضوابط منهجية لفهم هذه السنة
هذه السنة ماضية على الأفراد والجماعات، فلا يفلت منها أحد، ولها في السياق الجماعي صور وحِكم أكثر من السياق الفردي
هذه السنة أصلٌ للسنن الإلهية المتعلقة بالمؤمنين
هذه السنة لا تتعلق بمرحلة الاستضعاف وحدها، وإنما هي ملازمة للمؤمنين
لا تنحصر سنة الابتلاء في الشدائد، بل قد يأتي الابتلاء بالخير والحسنات.
الابتلاء قد يكون بالأقدار المؤلمة وقد يكون التكليف بالأمور المكروهة
لا يتم فهم هذه السنة على وجهها إلا بالجمع بين نوعي الأدلة الواردة في سنة الابتلاء، وهي: «أدلة في بيان كون الابتلاء سنة ماضية»، و«أدلة متضمنة لكثير من الأمثلة على ابتلاء المؤمنين من الأنبياء وأتباعهم».
علاقة هذه السنة بغيرها من السنن
هي أثر من آثار سنة الإملاء والإمهال للمجرمين
سنة التدافع
سنة الابتلاء شرط لتحقيق سنة النصر
سنة المداولة
سنة إهلاك الظالمين
سنة الاستبدال
هي الطريقة التي يحقق الله بها سنة التمييز بين الخبيث والطيب داخل الصف المسلم

سنة الابتلاء

تابع 1

أدلة هذه السنة من الوحي

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦﴾

﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٤﴾

سنة الابتلاء

تابع 2

الحِكَم والمقاصد من هذه السنّة

- اختبار صدق المؤمن في ادعائه الإيمان
- ظهور معاني الإيمان وعلاماته ومقتضياته
- أن يتخذ الله من المؤمنين شهداء
- تمييز الصف الإسلامي
- تهيئة المؤمنين للنصر بعد التمحيص والتنقية
- إيجاد أسباب استحقاق الكفار لمزيد من العذاب

الثمرات المترتبة على الوعي بهذه السنة

- التهيؤ والاستعداد النفسي للابتلاءات والشدائد وعدم التفاجؤ بها
- إحسان الظن بالله عند نزول البلاء واشتداده؛ لما عند المؤمن من استعداد مسبق لذلك
- الصبر والثبات وعدم الانكسار والهزيمة
- تحقيق العبودية لله تعالى على جميع الأحوال، وعدم الركون إلى الدنيا عند النصر

تنزيل هذه السنّة على الواقع

- البلاءات الشديدة التي نعيشها اليوم قد تكون عقوبات على المعاصي وترك القيام بالدين
- تغير حالنا اليوم مرهون بالاستمرار في الإصلاح ومحاربة الباطل

السُّنَّةُ الثالثة:

سنة النصر والاستخلاف والتمكين للمؤمنين

السنة الثالثة:
سنة النصر والاستخلاف والتمكين للمؤمنين

أولاً: بيان معنى السنة:

سنّة النصر: هي السنة الإلهية القاضية بتأييد الله تعالى لرسله وأتباعهم من القائمين بدينه على عدوهم، بغلبة السيف أو علو الكلمة وظهور الحجة.

سنة الاستخلاف والتمكين: هي السنة الإلهية القاضية بتوريث الله الأرض لعباده المؤمنين، واستخلافهم فيها بعد إهلاك أعدائه، وتمكين دينه في الأرض.



ثانياً: ضوابط منهجية لفهم هذه السنة:

١- أن هذه السنة ثابتة دائمة لا تنخرم كما قال ابن تيمية: (فهذه سنة الله وعادته في نصر عباده المؤمنين إذا قاموا بالواجب على الكافرين، وانتقامه وعقوبته للكافرين الذين بلغتهم الرسل بعذاب من عنده أو بأيدي المؤمنين= هي سنة الله التي لا توجد منتقضة قط)[1].

٢- أن الله سبحانه ذكر للنصر شروطاً تجب مراعاتها، وللهزيمة أسباباً يجب اجتنابها، وأنه بقدر تحقيق شروط النصر واجتناب أسباب الهزيمة يتحقق النصر بإذن الله تعالى، ومن أهم هذه الشروط:

أ- **الصبر**، ويتضمن الثبات عند القتال وعدم الفرار، والثبات على الإسلام والجهاد وعدم التبديل.

ومن الأدلة على ارتباط النصر بالصبر، قوله سبحانه: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [سورة الأنفال:٦٥] وقوله: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [سورة الأنفال:٦٦] وقوله سبحانه: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة البقرة:٢٤٩] وكذلك قوله سبحانه: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾[سورة آل عمران:١٤٦] ثم قال سبحانه: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾[سورة آل عمران:١٤٨] وهو النصر.

(١) الرد على المنطقيين: (٣٩٠-٣٩١) لابن تيمية.

ومن الأدلة كذلك ما روي عن النبي ﷺ في حديث ابن عباس أنه قال: «**واعلم أن النصر مع الصبر**»(١).

وهذا كله يبيّن مركزية الصبر في شروط النصر، فليستصحب ذلك المؤمن المصلح المجاهد في سبيل الله، فلا نصر بلا صبر.

ب- الإيمان، وهو يتضمن معنى اليقين والتصديق، فبقدر هذا الإيمان واليقين يكون النصر، كما قال ابن القيم رحمه الله: (كذلك النصر والتأييد الكامل؛ إنما هو لأهل الإيمان الكامل، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [سورة غافر:٥١] وقال: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [سورة الصف:١٤] فمن نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد، ولهذا إذا أصيب العبد بمصيبة في نفسه أو ماله، أو بإدالة عدوه عليه، فإنما هي بذنوبه، إما بترك واجب، أو فعل محرم وهو من نقص إيمانه)(٢).

جـ- العمل الصالح، كما قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [سورة النور:٥٥] فجمع بين الإيمان والعمل الصالح لتحقيق التمكين.

د- طاعة الله ورسوله، وذلك أن الله سبحانه أوصى المجاهدين بها كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [سورة الأنفال:٤٥-٤٦] وبيّن أن تركها هو السبب في الهزيمة، كما قال سبحانه عن المؤمنين يوم أحد: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: (٦٣٠٤).

(٢) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان: (٢/ ٩٢٦ - ٩٢٧) لابن القيم.

﴿فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [سورة آل عمران:١٥٢].

هـ- **الإحسان**، كما قال سبحانه: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [سورة آل عمران:١٤٨].

قال ابن سعدي رحمه الله: «ومن الإحسان أن يفعل عند جهاد الأعداء، كفعل هؤلاء الموصوفين»[1].

و- **اجتماع الكلمة** وعدم التنازع والتفرق، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [سورة الأنفال:٤٦] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [سورة الصف:٤]

هـ - **اتخاذ الأسباب**، وذلك أنه سبحانه قد جعل لكل شيء سببا، ولكل نتيجة مقدمة، فأمر سبحانه بالإعداد فقال: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [سورة الأنفال:٦٠] وكان النبي ﷺ يتخذ ما استطاع من الأسباب المادية للنصر، من التجهيز وترتيب الصفوف واختيار القادة ولبس الدروع وغير ذلك، وهو سيد المتوكلين عليه صلاة الله، فلم يكن يكتفي بالإيمان والتوكل دون اتخاذ الأسباب.

ومن جُملة الأسباب المعتبرة شرعاً: عدد جيش المؤمنين الذي يقاتل الكفار، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ﴾ [سورة الأنفال:٦٦]. والآية واردة في التكليف بالثبات لا في مجرد الخبر، بقرينة: ﴿خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ ومع ذلك فالصيغة

(١) تفسير السعدي: (١٥١).

الخبرية يستفاد من دلالتها اعتبار العدد، فتحقيق هذه النسبة العددية مع الإيمان والصبر مظنة النصر، وقد يحقق الله النصر بأقل من هذا العدد بكثير، بقدر إيمان أصحابه وصبرهم وثباتهم واتخاذهم الأسباب الممكنة، لعموم قوله سبحانه: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة:٢٤٩] فهذه النسبة العددية ليست شرطاً للنصر لا يتحقق بدونه، ولكنها مظنة له.

٣- أنه إذا وُجدَت الهزيمة لأهل الإيمان العاملين لرفع راية الدين فهي على إحدى هذه الوجوه:

أ- أن تكون بسبب تحقق سنن أخرى، كسنة المداولة، أو سنة الابتلاء، أو سنة التمييز بين الخبيث والطيب، ولكنّ العاقبة لا بد أن تكون لأهل الحق.

ب- أن تكون بسبب إخلال المؤمنين بشرط من شروط النصر، كما حصل يوم أحد الذي بدأ بنصر الله، ثم ارتفع عنهم بسبب عصيان من عصى، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ﴾ [سورة آل عمران:١٥٢]

جـ- ألّا تكون هزيمة أصلاً، وإنّما تكون ضمن نطاق سنة النصر التي لا تنحصر في صورة واحدة، وإنما تتفاوت صورها، كما سيأتي في الفقرة التالية.

٤- أن صور النصر وأنواعه مختلفة، ولا يتمّ فهم هذه السنّة إلا بإدراك تفاوت صورها.

يظن البعض أن النصر يتمثل في الغلبة الحسية على الأعداء فقط، وهذا حصرٌ غير صحيح، والذي يتأمل في خطاب الله تعالى يُدرك أنّ النّصر يأتي على صور متعددة، وهذه أهمها:

أ- الغلبة على الأعداء والظهور عليهم بالسيف والسنان، وهذه من أبرز صور النصر وأهمها، وهي التي تحققت يوم بدر ويوم فتح مكة.

ب- الظهور بالحجة والبيان، وإظهار كلمة الحق، وإبطال كلمة الباطل، وهذا نوع من أنواع النصر.

جـ - التخليص من الأعداء، والإنجاء منهم.

د- منع الأعداء من تحقيق مرادهم من المسلمين، وتبديد جهودهم، وإبطال مكرهم، وردهم خائبين.

هـ- صدق الوعد الحق بعد تربص الأعداء، وعلوّ الكلمة وإظهارها.

و- الفتح الدعوي، ودخول الناس في الدين، ولو كان مصحوباً بموت الداعية أو مقتله.

ز- إهلاك أعدائهم في حياتهم أو الانتقام منهم بعد مماتهم.

وبعد هذا الإجمال، سأذكر من كلام أهل العلم في تفسير آيات القرآن المتعلقة بالنصر ما يدل على ما أجملتُه هنا من تفاوت مراتب النصر في الخطاب القرآني:

أ- قال ابن الجوزي ﵀ في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [سورة غافر:٥١]:

(فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن ذلك بإثبات حججهم.

والثاني: بإهلاك عدوهم.

والثالث: بأن العاقبة تكون لهم.

وفصل الخطاب: أن نصرهم حاصل لابد منه، فتارة يكون بإعلاء أمرهم كما أعطى داود وسليمان من الملك ما قهرا به كل كافر، وأظهر محمدًا ﷺ على مكذبيه، وتارة يكون بالانتقام من مكذبيهم بإنجاء الرسل وإهلاك أعدائهم، كما فعل بنوح وقومه وموسى وقومه، وتارة يكون بالانتقام من مكذبيهم بعد وفاة الرسل، كتسليطه بختنصر على قتلة يحيى بن زكريا)[1].

ب- أما الشنقيطي رحمه الله فله تقرير مفصّل أنقله بطوله لفائدته في هذا الباب: (والآيات القرآنية مبينة أن النبي المقاتل غير مغلوب بل هو غالب، كما صرح تعالى بذلك في قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [سورة المجادلة:٢١]، وقال قبل هذا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ [سورة المجادلة:٢٠]، وقال بعده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

وأغلب معاني الغلبة في القرآن الغلبة بالسيف والسنان:

- كقوله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [سورة الأنفال:٦٥].
- وقوله: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ﴾ [سورة الأنفال:٦٦].

(١) زاد المسير في علم التفسير: (٤/ ٤١) لابن الجوزي.

• وقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [سورة الروم:١-٤].

• وقوله: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ﴾ [سورة البقرة:٢٤٩].

• وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ﴾ [سورة آل عمران:١٢].

إلى غير ذلك من الآيات.

وبيّن تعالى أن المقتول ليس بغالب بل هو قسم مقابل للغالب بقوله: ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ﴾ [سورة النساء:٧٤]، فاتضح من هذه الآيات أن القتل ليس واقعا على النبي المقاتل؛ لأن الله كتب وقضى له في أزله أنه غالب، وصرح بأن المقتول غير غالب.

وقد حقق العلماء أن غلبة الأنبياء على قسمين:

١- غلبة بالحجة والبيان وهي ثابتة لجميعهم،

٢- وغلبة بالسيف والسنان، وهي ثابتة لخصوص الذين أمروا منهم بالقتال في سبيل الله؛ لأن من لم يؤمر بالقتال ليس بغالب ولا مغلوب؛ لأنه لم يغالب في شيء، وتصريحه تعالى بأنه كتب إن رسله غالبون شامل لغلبتهم من غالبهم بالسيف، كما بينا أن ذلك هو معنى الغلبة في القرآن، وشامل أيضا لغلبتهم بالحجة والبيان، فهو مبين أن نصر الرسل المذكور في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [سورة غافر:٥١] الآية، وفي قوله: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ۝١٧٢﴾ [سورة الصافات:١٧١-١٧٢].

أنه نصر غلبة بالسيف والسنان للذين أمروا منهم بالجهاد؛ لأن الغلبة التي بين أنها كتبها لهم أخص من مطلق النصر؛ لأنها نصر خاص، والغلبة لغة القهر والنصر لغة إعانة المظلوم، فيجب بيان هذا الأعم بذلك الأخص.)[1]

ج- وقال ابن عطية ﵀ في تفسير قوله: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [سورة الروم:٤-٥]. قال: «ويحتمل أن يشار به إلى فرح المسلمين بنصر الله تعالى إياهم في أن صدق ما قال نبيهم عليه الصلاة والسلام في أن الروم

(١) أضواء البيان: (١/ ٣٤٢) فما بعدها – باختصار –، وقال في تتمة الكلام: وبهذا تعلم أن ما قاله الإمام الكبير ابن جرير ﵀ ومن تبعه في تفسير قوله: ﴿إنا لننصر﴾ الآية، من أنه لا مانع من قتل الرسول المأمور بالجهاد، وأن نصره المنصوص في الآية، حينئذ يحمل على أحد أمرين: أحدهما: أن الله ينصره بعد الموت، بأن يسلط على من قتله من ينتقم منه، كما فعل بالذين قتلوا يحيى وزكرياء وشعيا من تسليط بختنصر عليهم، ونحو ذلك. الثاني: حمل الرسل في قوله: ﴿إنا لننصر رسلنا﴾ على خصوص نبينا ﷺ وحده، أنه لا يجوز حمل القرآن عليه لأمرين: أحدهما: أنه خروج بكتاب الله عن ظاهره المتبادر منه بغير دليل من كتاب، ولا سنة ولا إجماع، والحكم بأن المقتول من المتقاتلين هو المنصور بعيد جدا، غير معروف في لسان العرب، فحمل القرآن عليه بلا دليل غلط ظاهر، وكذلك حمل الرسل على نبينا وحده ﷺ فهو بعيد جدا أيضا، والآيات الدالة على عموم الوعد بالنصر لجميع الرسل كثيرة، لا نزاع فيها. الثاني: أن الله لم يقتصر في كتابه على مطلق النصر الذي هو في اللغة إعانة المظلوم، بل صرح بأن ذلك النصر المذكور للرسل نصر غلبة بقوله: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ الآية، وقد رأيت معنى الغلبة في القرآن ومر عليك أن الله جعل المقتول قسما مقابلا للغالب في قوله: ﴿ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب﴾، وصرح تعالى بأن ما وعد به رسله لا يمكن تبديله بقوله جل وعلا: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين﴾ [الأنعام: ٣٤]، ولا شك أن قوله تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ [٢١]، من كلماته التي صرح بأنها لا مبدل لها وقد نفى جل وعلا عن المنصور أن يكون مغلوبا نفيا باتا بقوله: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وذكر مقاتل أن سبب نزول قوله تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن﴾ الآية [المجادلة: ٢١] أن بعض الناس قال: أيظن محمد وأصحابه أن يغلبوا الروم وفارس، كما غلبوا العرب زاعما أن الروم وفارس لا يغلبهم النبي ﷺ لكثرتهم، وقوتهم فأنزل الله الآية، وهو يدل على أن الغلبة المذكورة فيها غلبة بالسيف والسنان؛ لأن صورة السبب لا يمكن إخراجها، ويدل له قوله قبله: ﴿أولئك في الأذلين﴾ [المجادلة: ٢٠]، وقوله بعده: ﴿إن الله قوي عزيز﴾.

ستغلب فارس، فإن هذا ضرب من النصر عظيم»[١].

د- وقال ابن تيمية رحمه الله عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الصافات:١٧١-١٧٢]:

(هذا يشكل على بعض الناس، فيقول: الرسل قد قُتل بعضهم، فكيف يكونون منصورين؟ فيقال: القتل إذا كان على وجهٍ فيه عزة الدين وأهله كان هذا من كمال النصر، فإنَّ الموت لا بدَّ منه، فإذا مات ميتةً يكون بها سعيدًا في الآخرة فهذا غاية النصر، كما كان حال نبيِّنا ﷺ، فإنَّه استشهد طائفةٌ من أصحابه فصاروا إلى أعظم كرامةٍ، ومن بقي كان عزيزًا منصورًا، وكذلك كان الصحابة يقولون للكفار: أخبرنا نبيُّنا أنَّ من قُتل منَّا دخل الجنة، ومن عاش منَّا ملك رقابكم.

فالمقتول إذا قُتل على هذا الوجه كان ذلك من تمام نصره ونصر أصحابه، ومن هذا الباب حديث الغلام الذي رواه مسلم، لما اتَّبع دين الراهب وترك دين الساحر، وأرادوا قتله مرةً بعد مرةٍ فلم يستطيعوا، حتى أعلمهم بأنَّه يُقتل إذا قال الملك: بسم الله رب الغلام. ثمَّ يرميه، ولمَّا قُتل آمن الناس كلُّهم، فكان هذا نصرًا لدينه.

ولهذا لما قُتل عمر بن الخطاب شهيدًا بين المسلمين قُتل قاتله، وعثمان لما قُتل شهيدًا قُتل قتلتُه وانتصرت طائفته، وكذلك عليّ لما قتله الخوارج مستحلِّين قتلَه كانوا ممَّن أمر الله ورسوله بقتالهم، وكانوا مقهورين مع أهل السنة والجماعة.

فلم يمنع ذلك عن الإسلام وأهله، لا سيَّما والنبيون الذين قتلوا كان الله

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: (٤/ ٣٢٨-٣٢٩).

ينتقم ممَّن قتلهم، حتَّى يقال إنَّه قتل على دم يحيى بن زكريا سبعون ألفًا)[(١)]

٥- أن سنّة النصر لا بد أن تكون مسبوقة بسنة الابتلاء، فمحلّها في خارطة السنن متأخر، فلا بد فيها من الزمن، ومن يتأمل في آيات الكتاب العزيز سيجد أنّ النصر لا يأتي في البداية، كما قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ [سورة يوسف:١١٠] وقال سبحانه: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾ [سورة البقرة:٢١٤]، وفي حديث هرقل: «وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة»[(٢)]

٦- أن مقياس الزمن في موعد النصر متعلق بميزان الله تعالى لا بميزان البشر، ولذلك فإنهم يستبطؤون النصر ويريدون تعجيل زمانه، وأمّا عند الله سبحانه فهو قريب وإن استبطؤوه، كما قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [سورة البقرة:٢١٤]

٧- أن هناك فرقاً بين النصر الجزئي المرحلي وبين النصر الكلي التامّ، ولكلٍّ منهما سياقه واعتباراته، فالنّصر الذي حققه الله للمؤمنين يوم بدر يختلف عن النصر الذي تحقق يوم فتح مكة، فالأول تبعته هزائم ومصائب، كما حصل يومَ بئر معونة، ويومَ أحد، وكانت الحرب سجالاً، وكان المشركون يغزون المدينة بعد بدر، مع أنه كان نصراً عظيماً، لكنه كان نصر البدايات، وأما فتح مكة فكان مختلفاً، فقد كان نصر فتح وتمكين، ودخل الناس بعده في دين الله أفواجا، وخضع سادة قريش وزعماء حربهم لرسول الله ﷺ.

---

(١) اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية: (المسألة ١٣٢) لابن عبد الهادي.

(٢) رواه البخاري: (٤٥٥٣).

والفائدة من ذلك ألا يتطلب المؤمن النصر التام الذي فيه التمكين المستقر قبل أوانه، وألا يظنّ أن النصر الجزئي لا يُمكن أن يُعقَب بهزائم أو خسائر.

٨- أن الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها ليس معه ضمان الاستمرار إلا بقدر الثبات على شروط التمكين، كما قال سبحانه في آية التمكين في سورة النور: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [سورة النور:٥٥] قال ابن عاشور: (تحذير بعد البشارة على عادة القرآن في تعقيب البشارة بالنذارة والعكس دفعا للاتكال)[١] ولذلك قال ابن كثير رحمه الله عند هذه الجملة من الآية: (فالصحابة رضي الله عنهم، لما كانوا أقوم الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم بأوامر الله عز وجل، وأطوعهم لله -كان نصرهم بحسبهم، وأظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب، وأيدهم تأييدا عظيما، وتحكموا في سائر العباد والبلاد. ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر، نقص ظهورهم بحسبهم)[٢]

وقال ابن سعدي رحمه الله: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ التمكينِ والسلطنةِ التامةِ لكم، يا معشر المسلمين، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الذين خرجوا عن طاعة الله، وفسدوا، فلم يصلحوا لصالح، ولم يكن فيهم أهلية للخير، لأن الذي يترك الإيمان في حال عزه وقهره، وعدم وجود الأسباب المانعة منه، يدل على فساد نيته، وخبث طويته، لأنه لا داعي له لترك الدين إلا ذلك)[٣].

❊ ❁ ❊

(١) التحرير والتنوير: (١٨/ ٢٨٨) لابن عاشور.
(٢) تفسير ابن كثير: (٦/ ٧٤).
(٣) تفسير السعدي: (٥٧٣).

ثالثاً: أدلة هذه السنة من الوحي، وبيان معنى هذه الأدلة وتحرير كلام المفسرين حولها:

بعد بيان الضوابط المنهجية المتعلقة بسنة النصر، نقف مع مجموعة من الآيات المتعلقة بهذه السنة مستحضرين ما تمّ تقريره في تلك الضوابط، مع انتقاء أفضل تقريرات المفسرين حولها، وسأبدأ بالآيات المتعلقة بسنة النصر، ثم الآيات المتعلقة بسنة التمكين والاستخلاف، وذلك كما يلي:

القسم الأول: الأدلة على سنّة النصر:

١- ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [سورة غافر:٥١]

هذه الآية فيها تقرير محكم بنصر الله لرسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا، وأسلوبها العام المتعلق بفعل الله تعالى يدل على أنها سنّة مستمرة، ويؤيد ذلك الآيات الأخرى التي ذكرها الله سبحانه في سنة النصر.

ولكن ربما أشكلت هذه الإطلاقات على بعض من لم يفقه سنن الله حقيقة الفقه، وذلك حين يرى ابتلاءات المؤمنين وتأخر النصر عنهم في الدنيا، كما قال الإمام الطبري ﷺ مبيّناً الإشكال ومجيباً عنه: (يقول القائل: وما معنى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وقد علمنا أن منهم من قتله أعداؤه، ومثّلوا به، كشعياء ويحيى بن زكريا وأشباههما. ومنهم من همّ بقتله قومه، فكان أحسن أحواله أن يخلص منهم حتى فارقهم ناجيا بنفسه، كإبراهيم الذي هاجر إلى الشام من أرضه مفارقا لقومه، وعيسى الذي رفع إلى السماء إذ أراد قومه قتله، فأين النصرة التي أخبرنا أنه ينصرها رسله، والمؤمنين به في الحياة الدنيا، وهؤلاء أنبياؤه قد نالهم من قومهم ما قد علمت، وما نصروا على

من نالهم بما نالهم به؟

قيل: إن لقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وجهين كلاهما صحيح معناه.

أحدهما أن يكون معناه: إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا إما بإعلائناهم على من كذّبنا وإظفارنا بهم، حتى يقهروهم غلبة، ويذلوهم بالظفر ذلة، كالذي فعل من ذلك بداود وسليمان، فأعطاهما من الملْك والسلطان ما قهرا به كل كافر، وكالذي فعل بمحمد ﷺ بإظهاره على من كذّبه من قومه، وإما بانتقامنا ممن حادّهم وشاقهم بإهلاكهم وإنجاء الرسل ممن كذّبهم وعاداهم، كالذي فعل تعالى ذكره بنوح وقومه، من تغريق قومه وإنجائه منهم، وكالذي فعل بموسى وفرعون وقومه، إذ أهلكهم غرقا، ونجى موسى ومن آمن به من بني إسرائيل وغيرهم ونحو ذلك، أو بانتقامنا في الحياة الدنيا من مكذّبيهم بعد وفاة رسولنا من بعد مهلكهم، كالذي فعلنا من نصرتنا شعياء بعد مهلكه، بتسليطنا على قتله من سلطنا حتى انتصرنا بهم من قتلته، وكفعلنا بقتلة يحيى، من تسليطنا بختنصر عليهم حتى انتصرنا به من قتله له وكانتصارنا لعيسى من مريدي قتله بالروم حتى أهلكناهم بهم، فهذا أحد وجهيه.

والوجه الآخر: أن يكون هذا الكلام على وجه الخبر عن الجميع من الرسل والمؤمنين، والمراد واحد، فيكون تأويل الكلام حينئذ: إنا لننصر رسولنا محمدا ﷺ والذين آمنوا به في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، كما بيَّنا فيما مضى أن العرب تخرج الخبر بلفظ الجميع، والمراد واحد إذا لم تنصب للخبر شخصا بعينه)[١].

---

(١) تفسير الطبري: (٢٠/ ٣٤٤ -٣٤٥) باختصار.

قال ابن عطية ﷺ: (أخبر الله تعالى أنه ينصر رسله والمؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة، قال بعض المفسرين: وهذا خاص فيمن أظهره الله على أمته كنوح وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وليس بعام، لأنا نجد من الأنبياء عليهم السلام من قتله قومه كيحيى عليه السلام ولم ينصر عليهم. وقال السدي: الخبر عام على وجهه، وذلك أن نصرة الرسل عليهم الصلاة والسلام واقعة ولا بد، إما في حياة الرسول المنصور كنوح وموسى عليهما السلام، وإما فيما يأتي من الزمان بعد موتهم، ألا ترى إلى ما صنع الله تبارك وتعالى ببني إسرائيل بعد قتلهم يحيى عليه السلام من تسليط بختنصر عليهم حتى انتصر ليحيى عليه السلام؟ ونصر المؤمنين داخل في نصر الرسل عليهم السلام، وأيضا فقد جعل الله للمؤمنين الفضلاء ودا، ووهبهم نصرا إذا ظلموا، وحضت الشريعة على نصرهم)[(١)]

وقال البقاعي ﷺ: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بإلزامهم طريق الهدى الكفيلة بكل فوز وبالحجة والغلبة، وإن غلبوا في بعض الأحيان فإن العاقبة تكون لهم، ولو بأن يقيض سبحانه لأعدائهم من يقتص منهم ولو بعد حين، وأقل ذلك ألا يتمكن أعداؤهم من كل ما يريدون منهم)[(٢)]

٢- قوله سبحانه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [سورة المجادلة:٢١]

قال ابن الجوزي ﷺ: (قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ أي: قضى الله ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ قال المفسرون: مَن بُعِث من الرسل بالحرب، فعاقبة الأمر له، ومن لم يبعث بالحرب، فهو غالب بالحجة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: مانع حزبه

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: (٤/ ٥٦٤) لابن عطية.
(٢) تفسير البقاعي: (١٧/ ٨٧).

من أن يذل)[١].

وقال ابن عطية ﵀: (وقال الحسن: ما أمر الله تعالى قط رسولا بالقتال إلا وغلّبه، وظفّره بقوته وعزته، لا رب سواه، وقال غيره: ومن لم يؤمر بقتال فهو غالب بالحجة.)[٢]

٣- قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الروم:٤٧]

هذه الآية من أظهر الآيات في كون نصر المؤمنين سنة ماضية لا تتبدل، وذلك لقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾، ومن الملاحظ في كلام المفسرين عند هذه الآية أن عامتهم حملوا معنى النصر فيها على الإنجاء من أعدائهم، وقد سبق أن هذا من معاني النصر، ولعلهم حملوها على ذلك لأجل سياق الآية والله أعلم. قال مقاتل في تفسيره:﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (فكان نصْرُهم أنّ الله أنجاهم مِن العذاب مع الرسل)[٣].

وقال الطبري ﵀: (يقول: ونجّينا الذين آمنوا بالله وصدّقوا رسله، إذ جاءهم بأسنا، وكذلك نفعل بك وبمن آمن بك من قومك،﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الروم:٤٧] على الكافرين، ونحن ناصروك ومن آمن بك على مَن كفر بك، ومظفروك بهم)[٤]

(١) زاد المسير في علم التفسير: (٤/ ٢٥١). باختصار
(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: (٥/ ٢٨١).
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان: (٣/ ٤١٨).
(٤) تفسير الطبري: (١٨/ ٥١٩).

وقال ابن الجوزي ﵀: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أي: واجبا هو أوجبه على نفسه ﴿نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إنجاؤهم مع الرسل من عذاب المكذبين)[١]

وقال الواحدي ﵀: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال الحسن: نصر المؤمنين: إنجاؤهم مع الرسل من عذاب الأمم. وهو قول الكلبي ومقاتل)[٢]

٤- قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ [سورة الصافات:١٧١-١٧٢].

هذه الآية حَملها طائفة من المفسرين على النصر بالحجة، كما قال الطبري: (وقوله ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: ولقد سبق منا القول لرسلنا إنهم لهم المنصورون: أي مضى بهذا منا القضاء والحكم في أمّ الكتاب، وهو أنهم لهم النُّصرة والغَلبة **بالحجج**)[٣]

وقال ابن الجوزي ﵀: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾ أي: تقدم وعدنا للمرسلين بنصرهم، والكلمة قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾، ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ **بالحجة**، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا﴾ يعني حزبنا المؤمنين ﴿لَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ﴾ **بالحجة** أيضا والظفر)[٤]

وعن الحسن البصري ﵀ في قوله ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ﴾، قال: (لم يُقتَل مِن الرسل أصحاب الشرائع أحدٌ قطُّ)[٥]

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: (٣/ ٤٢٦).
(٢) التفسير البسيط: (١٨/ ٧٦) للواحدي.
(٣) تفسير الطبري: (١٩/ ٦٥٧)
(٤) زاد المسير في علم التفسير: (٣/ ٥٥٥) لابن الجوزي.
(٥) تفسير يحيى بن سلام: (٢/ ٨٤٨).

٥- قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [سورة محمد:٧]، وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

[سورة الحج:٤٠]

هاتان الآيتان في سنّة النصر فيهما بيان لمقدمات هذه السنة وشيء من شروطها، فالنصر من الله يأتي -قطعاً- لمن ينصر الله سبحانه، وقد بيّن العلماء معنى نصر الله تعالى، والمراد بذلك، **ففي الآية الأولى** قال الماوردي: (قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ فيه وجهان: أحدهما: إن تنصروا دين الله ينصركم الله. الثاني: إن تنصروا نبي الله ينصركم الله، قاله قطرب)[١]

قال الشنقيطي ﷺ: (ومعنى نصر المؤمنين لله: نصرهم لدينه ولكتابه، وسعيهم وجهادهم في أن تكون كلمته هي العليا، وأن تقام حدوده في أرضه، وتمتثل أوامره وتجتنب نواهيه، ويحكم في عباده بما أنزل على رسوله ﷺ.)[٢]

وقال البقاعي ﷺ: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ أي: يتجدد لكم نية مستمرة وفعل دائم، على نصرة دين الملك الأعظم؛ بإيضاح أدلته وتبيينها وتوهية شبه أهل الباطل، وقتالهم، ويكون ذلك خالصا له لا لغيره من النيات الفاسدة المعلولة بطلب الدنيا أو الشهرة بالشجاعةِ والعلم وطِيبِ الذِّكْرِ، أو الغضب للأهل وغير ذلك)[٣].

---

(١) تفسير الماوردي: (٥/ ٢٩٥).
(٢) تفسير الشنقيطي: (٧/ ٤٥٢).
(٣) تفسير البقاعي: (١٨/ ٢٠٩).

وأما الآية الثانية وهي قوله سبحانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ فالمقصود بنصر المؤمنين لله هنا: الجهاد في سبيل الله، كما قال الطبري ﷺ: (وقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ يقول تعالى ذِكره: وليعيننّ الله من يقاتل في سبيله، لتكون كلمته العليا على عدوّه؛ فنصْر الله عبده: معونته إياه، ونصْر العبد ربه: جهاده في سبيله، لتكون كلمته العليا.)[1].

قال ابن عاشور ﷺ: (وقوله ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ عطف على جملة ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾، أي أمر الله المسلمين بالدفاع عن دينهم. وضمن لهم النصر في ذلك الدفاع لأنهم بدفاعهم ينصرون دين الله، فكأنهم نصروا الله.)[2]

٦- قوله سبحانه: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [سورة البقرة:٢١٤]

هذه الآية من الآيات المهمة في بيان شيء من متعلقات سنة النصر، وهو كونه لا يأتي إلا بعد الابتلاءات، وكونه لا يأتي إلا بعد زمن، حتى يستبطئ الرسول والذين آمنوا معه موعده، وقد سبق الحديث عن الآية مراراً في هذا الكتاب.

٧- قوله ﷻ: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٢٢ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ [سورة الفتح:٢٢-٢٣].

(١) تفسير الطبري: (١٦/ ٥٨٧).
(٢) التحرير والتنوير: (١٧/ ٢٧٩) لابن عاشور.

هـذه الآيـة فيهـا نـصّ بـيّن محكـم عـلى أنّ المؤمنـين منصـورون عـلى أعدائهـم إن قاتلوهـم، وذلـك بخـذلان الله لهـؤلاء الكفـار، وعـدم نصرهـم لهـم، مما يـؤدي إلى فرارهـم وهزيمتهـم ونـصر المؤمنين، كما قال أبـو جعفر الطـبري ﵀: (يقول تعالى ذكـره: لـو قاتلكـم هـؤلاء الكفـار مـن قريـش، لخذلهـم الله حتـى يهزمهـم عنكـم؛ **خذلانـه أمثالهـم مـن أهـل الكفـر بـه،** الذيـن قاتلـوا أولياءه مـن الأمـم الذيـن مضـوا قبلهـم)[١]

والمقصـود بقولـه سـبحانه: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ مـا قالـه الزجّـاج ﵀: (المعنـى: لـو قاتلـك مـن لم يقاتلـك لنصرت عليه، لأن سـنة الله الـنصرة لأوليائـه)[٢]، وقال ابن سـعدي ﵀: (هذه سـنة الله في الأمم السـابقة، أن جند الله هم الغالبون) وقال ابن عاشـور﵀: (والمعنـى: سـن الله ذلـك سـنة، أي جعلـه عادة لـه يـنصر المؤمنين على الكافريـن إذا كانـت نيـة المؤمنين نصر دين الله كما قـال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ وقـال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي أن الله ضمـن الـنصر للمؤمنين بـأن تكـون عاقبـة حروبهـم نصرا وإن كانـوا قـد يغلبـون في بعـض المواقـع كما وقـع يـوم أحـد وقـد قـال تعـالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وقـال: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة طه:١٣٢])[٣].

(١) تفسير الطبري: (٢١/ ٢٨٧).

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي

(٣) التحرير والتنوير: (٢٦/ ١٨٢).

القسم الثاني: الأدلة على سنّة الاستخلاف والتمكين والوراثة:

١- قوله سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [سورة النور:٥٥].

هذه الآية هي الآية المركزية في هذه السنة، وهي مليئة بالمعاني وتتضمن بيان إثبات كون الاستخلاف سنة، وتبين شروطه، ومعناه، إلى غير ذلك من المعاني، ولذلك سأنتقي أفضل ما قاله المفسرون فيها ولو طال النقل قليلاً:

قال الطبري رحمه الله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: **ليورثنهم الله** أرض المشركين من العرب والعجم، فيجعلهم ملوكها وساستها ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يقول: كما فعل من قبلهم ذلك ببني إسرائيل، إذ أهلك الجبابرة بالشأم، وجعلهم ملوكها وسكانها ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ يقول: وليوطئن لهم دينهم، يعني: ملتهم التي ارتضاها لهم، فأمرهم بها.)[1]

وفي كلام الطبري رحمه الله الربط بين الاستخلاف والتوريث، وسيأتي بيان شيء من النصوص القرآنية حول سنة توريث المؤمنين أرض المشركين.

وقال ابن الجوزي رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ أي: ليجعلنهم يخلفون من قبلهم، والمعنى: **ليورثنهم أرض** الكفار من العرب والعجم، فيجعلهم ملوكها وساستها وسكانها)[2] وقال: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ﴾ وهو الإسلام،

(١) تفسير الطبري: (١٧/ ٣٤٦).

(٢) زاد المسير في علم التفسير: (٣/ ٣٠٤).

وتمكينه: إظهاره على كل دين)[١]، وأما ابن عاشور فقال: (وتمكين الدين: انتشاره في القبائل والأمم وكثرة متبعيه. استعير التمكين الذي حقيقته التثبيت والترسيخ لمعنى الشيوع والانتشار؛ لأنه إذا انتشر لم يخش عليه الانعدام فكان كالشيء المثبت المرسخ، وإذا كان متبعوه في قلة كان كالشيء المضطرب المتزلزل)[٢].

وقال ابن كثير ﵀: (هَذَا وَعْدٌ مِنَ اللهِ لِرَسُولِهِ ﷺ بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي: أئمة الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليبدلن بعد خوفهم من الناس أمنا وحكما فيهم، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك. وله الحمد والمنة، فإنه لم يمت رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها. وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية -وهو المقوقس- وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة، الذي تملك بعد أصحمة، رحمه الله وأكرمه.

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق)[٣] فذكر فتوحات الصحابة ومن بعدهم ثم قال: (وقوله: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كما قال تعالى عن موسى ﵇، أنه قال لقومه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأعراف:١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ

---

(١) المصدر السابق.

(٢) التحرير والتنوير: (١٨/ ٢٨٧) لابن عاشور.

(٣) تفسير ابن كثير: (٦/ ٧٠ – ٧١).

ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [سورة القصص:٥-٦].)[١] .

ثم قال بعد ذلك: (فالصحابة ﷺ، لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله عز وجل، وأطوعهم لله -كان نصرهم بحسبهم، وأظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب، وأيدهم تأييدا عظيما، وتحكموا في سائر العباد والبلاد. ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر، نقص ظهورهم بحسبهم، ولكن قد ثبت في الصحيحين، من غير وجه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة**» وفي رواية: «**حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك**» وفي رواية: «**حتى يقاتلوا الدجال**». وفي رواية: «**حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم ظاهرون**». وكل هذه الروايات صحيحة، ولا تعارض بينها)[٢].

وقال ابن عاشور ﷺ: (وجملة ﴿يَعْبُدُونَنِى﴾ حال من ضمائر الغيبة المتقدمة، أي: هذا الوعد جرى في حال عبادتهم إياي. وفي هذه الحال إيذان بأن ذلك الوعد جزاء لهم، أي: وعدتهم هذا الوعد الشامل لهم والباقي في خلفهم؛ لأنهم يعبدونني عبادة خالصة عن الإشراك)[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير: (٦/ ٧٣).
(٢) تفسير ابن كثير: (٦/ ٧٤).
(٣) التحرير والتنوير: (١٨/ ٢٨٨) لابن عاشور.

-وقال ابن سعدي ﵀ مبيّناً أن هذا الوعد ليس خاصا بأصحاب النبي ﷺ: (هذا من أوعاده الصادقة، التي شوهد تأويلها ومخبرها، فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة، أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وهو دين الإسلام، الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة، لفضلها وشرفها ونعمته عليها، بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة، في أنفسهم وفي غيرهم، لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين، وأنه يبدلهم من بعد خوفهم الذي كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه، وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلين جدا بالنسبة إلى غيرهم، وقد رماهم أهل الأرض عن قوس واحدة، وبغوا لهم الغوائل.

فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية، وهي لم تشاهد الاستخلافَ في الأرض والتمكينَ فيها، والتمكينَ من إقامة الدين الإسلامي، والأمن التام، بحيث يعبدون الله ولا يشركون به شيئا، ولا يخافون أحدا إلا الله، فقام صدر هذه الأمة، من الإيمان والعمل الصالح بما يفوقون على غيرهم، فمكنهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصل الأمن التام والتمكين التام، فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة، **ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح، فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله،** وإنما يسلط عليهم الكفار والمنافقين، ويديلهم في بعض الأحيان، بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح)[١].

(١) تفسير السعدي: (٥٧٣).

٢- قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۝١٤﴾ [سورة إبراهيم:١٣-١٤].

هذه الآية في سنة توريث الله المؤمنين أرض الكفار بعد المدافعة والإهلاك، كما قال الطبري ﷺ مبيناً كون هذا الأمر سنّة ماضية مستمرة: (وقوله ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾، هَذَا وَعْدٌ مِنَ الله مَنْ وَعَدَ مِنْ أَنْبِيَائِهِ النَّصْرَ عَلَى الْكَفَرَةِ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ، يَقُولُ: لَمَّا تَمَادَتْ أُمَمُ الرُّسُلِ فِي الْكُفْرِ، وَتَوَعَّدُوا رُسُلَهُمْ بِالْوُقُوعِ بِهِمْ، أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِمْ بِإِهْلَاكِ مَنْ كَفَرَ بِهِمْ مِنْ أُمَمِهِمْ وَوَعَدَهُمُ النَّصْرَ وَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ مِنَ الله وَعِيدًا وَتَهْدِيدًا لِمُشْرِكِي قَوْمِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى كُفْرِهِمْ بِهِ[١]، وَجَرَاءَتِهِمْ عَلَى نَبِيِّهِ، وَتَثْبِيتًا لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَأَمْرًا لَهُ بِالصَّبْرِ عَلَى مَا لَقِيَ مِنَ الْمَكْرُوهِ فِيهِ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِهِ، كَمَا صَبَرَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنْ أُولِي الْعَزْمِ مِنْ رُسُلِهِ، وَمَعْرِفَةَ أَنَّ عَاقِبَةَ أَمْرِ مَنْ كَفَرَ بِهِ الْهَلَاكُ، وَعَاقِبَتَهُ النَّصْرُ عَلَيْهِمْ، قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُ﴾ [سورة الأحزاب:٦٢]

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾، يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: هَكَذَا فِعْلِي لِمَنْ خَافَ مَقَامَهُ بَيْنَ يَدَيَّ، وَخَافَ وَعِيدِي، فَاتَّقَانِي بِطَاعَتِهِ وَتَجَنَّبَ سَخَطِي، أَنْصُرُهُ عَلَى مَنْ أَرَادَ بِهِ سُوءًا وَبَغَاهُ مَكْرُوهًا مِنْ أَعْدَائِي، أُهْلِكُ عَدُوَّهُ وَأُخْزِيهِ، وَأُورِّثُهُ أَرْضَهُ وَدِيَارَهُ)[٢].

---

(١) هذه عادة الطبري ﷺ في ربط آيات الأنبياء بالنبي محمد ﷺ.

(٢) تفسير الطبري: (١٣/ ٦١٣).

وقال ابن كثير ﵀ في نصّ بديع تتبع فيه الآيات القرآنية المشابهة لهاتين الآيتين: (يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم، من الإخراج من أرضهم، والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ [سورة الأعراف:٨٨]، وقال قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [سورة النمل:٥٦]، وقال تعالى إخبارا عن مشركي قريش: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الإسراء:٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [سورة الأنفال:٣٠].

وكان من صنعه تعالى: أنه أظهر رسوله ونصره، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصارا وأعوانا وجندا، يقاتلون في سبيل الله، ولم يزل يرقيه الله تعالى من شيء إلى شيء، حتى فتح له مكة التي أخرجته، ومكن له فيها، وأرغم آناف أعدائه منهم، ومن سائر أهل الأرض، حتى دخل الناس في دين الله أفواجا، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان، في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴿١٤﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [سورة الصافات:١٧١-١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [سورة المجادلة:٢١]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [سورة الأنبياء:١٠٥]، ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الأعراف:١٢٨]،

وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [سورة الأعراف:١٣٧])[١].

❊ ❁ ❊

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ٤١٥).

رابعاً: علاقة هذه السنة بغيرها من السنن:

سبق البيان في الضوابط المنهجية المتعلقة بفهم سنة النصر أنها سنة مسبوقة بمجموعة من السنن، ومن أهم السنن الإلهية المرتبطة بسنة النصر:

١- سنة الابتلاء، فالنصر لا يأتي إلا بعده

٢- سنة التدافع بين الحق والباطل.

٣- سنة المداولة.

٤- سنة التمييز بين الخبيث والطيب، وتمحيص المؤمنين، والعلاقة بينهما متعلقة بالنصر الكلي الذي لا يكون إلا للخُلَّص من المؤمنين، فلا بد من التمييز والتمحيص بالابتلاءات قبلها، وهذا ما حدث في سيرة النبي ﷺ.



خامساً: الحِكَم والمقاصد من هذه السنّة:

إن تقدير الله سبحانه نصر المؤمنين وتأييدهم فيه حكم كثيرة منها:

١- إعلاء كلمة الله ﷻ، فالله ينصر أولياءه ليُعلي كلمته.

٢- دخول الناس في دين الله سبحانه، وذلك لأنّ الناس يتبعون القوي في الغالب، فإذا نصر الله عباده المؤمنين أدى ذلك إلى دخول كثير من الناس في دينهم، وهذا الدخول وإن كان غير متين في أوله، ولكن لعله يَؤُول عند بعضهم إلى متانة ويقين في آخره.

٣- إكرام الله أولياءه واستجابته لدعائهم وشفاء صدورهم وإذهاب غيظ قلوبهم: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾ [سورة التوبة:١٤-١٥].

٤- كبت أعداء الله الكفار، وقطع دابرهم، والانتقام منهم، وتعذيبهم، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ﴾ [سورة آل عمران:١٢٣] ثم قال سبحانه: ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ [سورة آل عمران:١٢٧]، قال الطبري ﷺ: (فتأويل الكلام: ولقد نصركم الله ببدر ليهلك فريقا من الكفار بالسيف، أو يخزيهم بخيبتهم مما طمعوا فيه من الظفر ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾، يقول: فيرجعوا عنكم خائبين، لم يصيبوا منكم شيئا مما رجوا أن ينالوه منكم)[1] وقد يكون قوله سبحانه: ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا﴾، متعلقاً بالآية قبلها وهي: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، ولذلك قال السعدي ﷺ مبيناً شيئا من حكم النصر في تفسيره لهذه الآية: (يخبر تعالى أن نصره عباده المؤمنين

(١) تفسير الطبري: (٦/ ٤١).

لأحد أمرين: إما أن يقطع طرفا من الذين كفروا، أي: جانبا منهم وركنا من أركانهم، إما بقتل، أو أسر، أو استيلاء على بلد، أو غنيمة مال، فيقوى بذلك المؤمنون ويذل الكافرون، وذلك لأن مقاومتهم ومحاربتهم للإسلام تتألف من أشخاصهم وسلاحهم وأموالهم وأرضهم فبهذه الأمور تحصل منهم المقاومة والمقاتلة فقطع شيء من ذلك ذهاب لبعض قوتهم.

الأمر الثاني أن يريد الكفار بقوتهم وكثرتهم، طمعا في المسلمين، ويمنوا أنفسهم ذلك، ويحرصوا عليه غاية الحرص، ويبذلوا قواهم وأموالهم في ذلك، فينصر الله المؤمنين عليهم ويردهم خائبين لم ينالوا مقصودهم، بل يرجعون بخسارة وغم وحسرة، وإذا تأملت الواقع رأيت نصر الله لعباده المؤمنين دائرا بين هذين الأمرين، غير خارج عنهما إما نصر عليهم أو خذل لهم)(١).

٥- التوبة على الكفار إذا رأوا عزّ الإسلام وأصابهم المسلمون بالأسر والتنكيل، كما قال سبحانه في الآية السابقة: ﴿أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ على القول بكونها معطوفة على قوله سبحانه: ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفًا﴾.

٦- إقامة الأئمة الهادين للناس تمام الهداية، القائمين بدين الله الحاكمين به، وهذا لا يكون إلا بالنصر والتمكين، كما قال ابن سعدي ﷺ: ﴿وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةً﴾ [سورة القصص:٥] في الدين، وذلك لا يحصل مع استضعاف، بل لا بد من تمكين في الأرض، وقدرة تامة)(٢).



(١) تفسير السعدي: (١٤٦).
(٢) تفسير السعدي: (٦١١).

سادساً: الثمرات المترتبة على الوعي بهذه السنة:

١- التوكل على الله تعالى والتعلّق به وحده، وذلك لأن من أهم قواعد سنة النصر ومحكماتها: أن النصر من عند الله وحده، فلا يأتي إلا بالتوكل على الله والاعتماد عليه سبحانه، كما قال جلّ وعلا في آية جمع فيها بين هذه الحقيقة وبين الأمر بالتوكل: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة آل عمران:١٦٠]

٢- توطين النفس على الصبر، لأنه شرط أساسي للنصر، ولا يكون النصر إلا به كما تقدم، فالذي يعي هذه السنة ويفقهها يستصحب الصبر ويثبت عليه حتى يأتي النصر.

٣- تحقيق الطاعة لله ورسوله، واجتناب المعصية، وخاصة في سياق الجهاد في سبيل الله، وذلك للوعي بأن هذه السنة مرتبطة بهذه الاستجابة والانقياد.

٤- ثبات القلب وعدم الرهبة من الأعداء؛ للإيمان التام بسنّة النصر عليهم وأنها متعلقة بقوة الله لا بقوة البشر.

٥- السعي لإقامة دين الله، والإخلاص لله في القتال والجهاد، لأن فهم سنة النصر يقتضي الانطلاق من قوله سبحانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [سورة الحج:٤٠] وهذا لا يكون إلا بالجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، فبذلك يأتي النصر.

❁ ❁ ❁

سابعاً: تنزيل هذه السنّة على الواقع:

١- واقع الأمة الإسلامية لا ينبغي الحكم عليه بحكم واحد شامل للجميع، وذلك لأنّ الأمة لا تتحرك حركة واحدة تصدق عليها سلسلة السنن في محل واحد، بل هي متفاوتة في حركتها -وإن كان يجمعها في الجملة اسم الضعف والوهن-، ففي بعض البلدان وُجِد من جاهد لرفع راية الإسلام، وقتال أعداء الله، فصدقت عليهم منظومة السنن حتى وصلوا إلى النصر والتمكين كما حصل لإخواننا في أفغانستان، الذين جاهدوا في سبيل الله لمدة عشرين سنة وابتُلُوا في سياق ذلك ابتلاءً عظيماً حتى فتح الله لهم وأخزى أعداءهم، فهذا نصْرٌ لطائفةٍ من الأمة وتمكينٌ لها، وإن كان هذا التمكين متأثراً بالحالة العامة للأمة من الوهن والضعف وتسلط الأعداء، فهو تمكين محدود، لكنه تمكين لم يأت إلا بنصر من الله وعون وتأييد.



وإخواننا في فلسطين لا يزالون في تدافع شديد مع المحتلين، وهم يسيرون في منظومة السنن حتى يفتح الله عليهم، ولعل الله سبحانه ييسر للأمة الإسلامية مشاركتهم قريباً في دفع أعداء الله والنصر عليهم.

ومن أهم الأمور التي ينبغي على إخواننا في المقاومة الفلسطينية الحرص عليها في سياق شروط النصر: التمييز بين الخبيث والطيب، وذلك بألا يخلطوا صفوف أهل السنة بالمجرمين من الرافضة -الذين حاربوا أهل السنة في سوريا والعراق حربا شديدة، وارتكبوا في حقهم المجازر العظيمة- فلا يصفوهم بجنود الإسلام الذين تحدث عنهم النبي ﷺ بقوله: «**سيصير الأمر إلى أن تكونوا جنودا مجندة؛ جند بالشام وجند باليمن وجند بالعراق**»[(١)]

ولا يصفوهم بشهداء القدس وحماة المقدسات ونحو ذلك، فإن دماءنا لا تزال تنزف من قنابلهم وأسلحتهم، فضلا عن فساد معتقدهم وشدة انحرافهم، والأمر ليس بخاف على أحد، ولكنه يتطلب تخليص القلب من الشوائب.

وهذا لا يعني عدم الاستفادة من دعمهم كما يُستفاد من دعم غيرهم، فهذا مقام آخر، ولا يستلزم عدم شكرهم بقدر المقام دون تزكية ومبالغات، ولا عدم تقدير جهودهم في الإسناد ونحوه، ولكن الإشكال في تزكيتهم وغسل جرائمهم وإدخالهم في مصاف حماة الدين والمقدسات؛ فهذا من لبس الحق بالباطل وخلط الخبيث بالطيب.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٤٨٣) عن ابن حَوَالَةَ رضي الله عنه.

وأنا أتحدث هنا من منطلق سنة الله في التمييز بين الخبيث والطيب، فهي من مقدمات النصر والتمكين، فينبغي التنبّه لهذه الحسابات السننية الدقيقة، ونسأل الله أن يحفظ إخواننا وينصرهم.

وإخواننا في سوريا لا يزالون كذلك في دفع أعداء الله من الباطنية ومن أعانهم من المجرمين، وإن كانوا متأخرين كثيراً بسبب تفرقهم واختلافهم، ولو أنهم اجتمعت كلمتهم وتوحدت صفوفهم لرأينا من تأييد الله لهم وعونه ومدده ما تتحسن به الأحوال، وذلك لأن من شروط النصر: عدم التفرق والتنازع، كما مرّ معنا في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [سورة الأنفال:٤٦].

والجامع المشترك بين هذه النماذج هي أنها تُمثّل حالات مدافعة خاصة ومحدودة وليست عامة على مستوى الأمة.

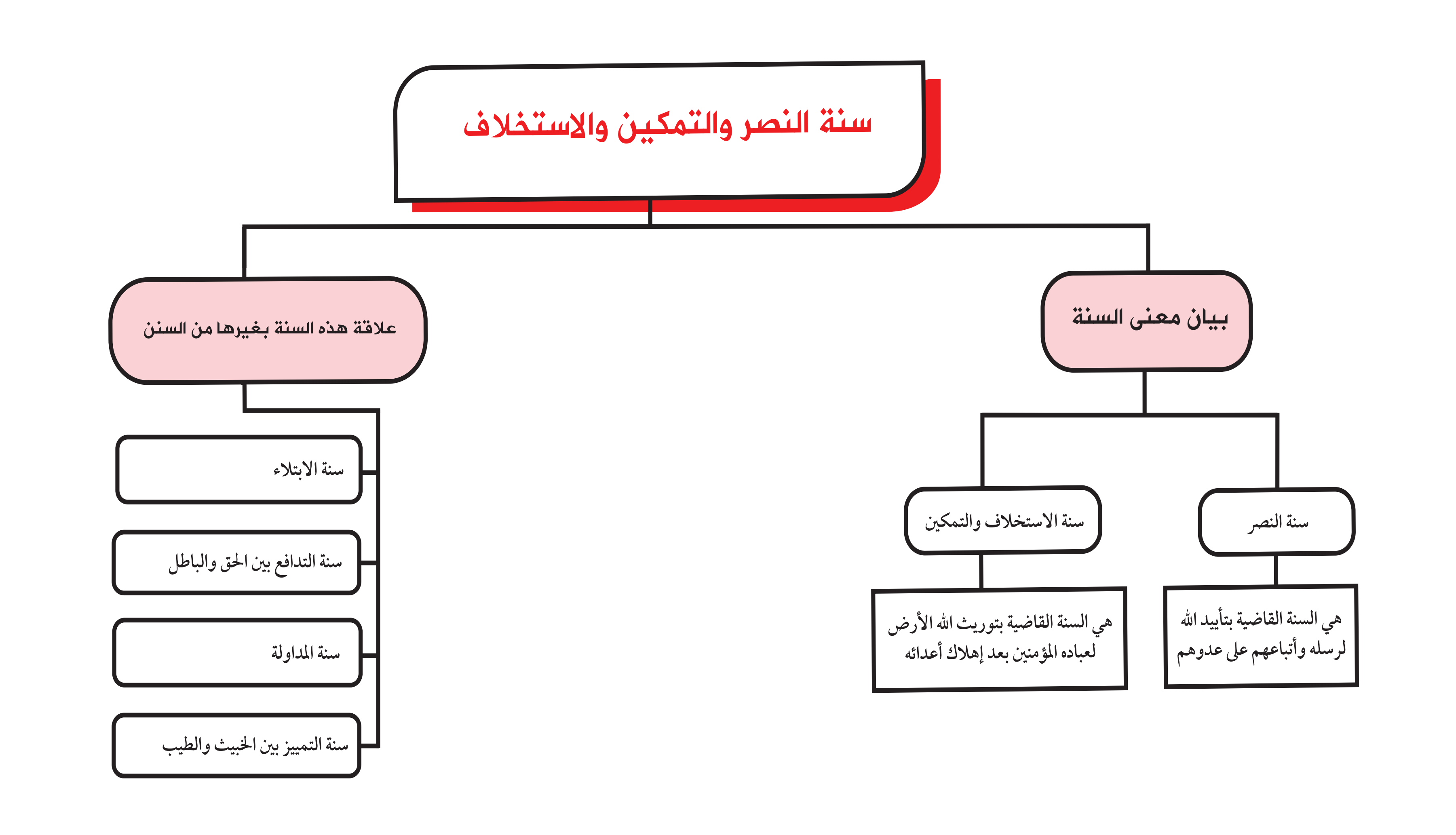
والمتوقع والله أعلم من خلال التأمل في مجموع السنن الإلهية وتنزيلها على الواقع بعد الوعي به: أن الأمة مقبلة على حالة تدافع عامة شديدة مع أعدائها، وأنّها بداية التمكين لهذه الأمة من جديد، وإعادة عزتها وكرامتها ومجدها.

٢- من أعظم ما تفتقده الأمة اليوم في أكثر أقطارها فيما يتعلق بسنة النصر والتمكين: الحَمَلة المصلحون القائمون على أمر الله الساعون لتمكين دينه، فهؤلاء هم الطرف الأهم في سنة النصر من جهة الأسباب، إذْ إنّ نصر الله إنما يتنزل عليهم، والذي يتأمل في الواقع يرى مقدار قلة من يصح عليهم هذا الوصف، وبناء على ذلك، فإن من أهم النتائج التي أخرج بها من هذا البحث في السنن الإلهية: أهمية العمل على صناعة المصلحين، وأنه من أولى الأولويات،

ثم العمل على تفعيل هؤلاء المصلحين لسد ثغور الأمة وتلبية احتياجاتها المختلفة. وقد وُجدَت في السنوات الأخيرة برامج تعليمية لصناعة المصلحين، نرجو من الله أن تكون إسهاماً كبيراً لهذه الأمة في تحقيق هذا الواجب.

والخلاصة أنه في الأماكن التي لا يوجد فيها المصلحون وحملة الدين فالواجب التركيز على صناعتهم، وفي الأماكن التي يكثر فيها المصلحون فالواجب تكميل صفاتهم على ضوء شروط النصر المذكورة هنا، وعلى ضوء ما ذكرتُه مفصّلا من صفات المصلحين في كتاب بوصلة المصلح.




سنة النصر والتمكين والاستخلاف
بيان معنى السنة
سنة النصر
هي السنة القاضية بتأييد الله لرسله وأتباعهم على عدوهم
سنة الاستخلاف والتمكين
هي السنة القاضية بتوريث الله الأرض لعباده المؤمنين بعد إهلاك أعدائه
علاقة هذه السنة بغيرها من السنن
سنة الابتلاء
سنة التدافع بين الحق والباطل
سنة المداولة
سنة التمييز بين الخبيث والطيب


سنة النصر والتمكين والاستخلاف
تابع 1
ضوابط منهجية لفهم هذه السنة
هذه السنة ثابتة دائمة لا تنخرم
للنصر شروط وأنواع مختلفة، ومن أهمها:
الصبر
الإيمان
العمل الصالح
طاعة الله ورسوله
الإحسان
اجتماع الكلمة
اتخاذ الأسباب
لا بد أن تُسبق سنة النصر بسنة الابتلاء
إذا وجدت الهزيمة لرافع راية الدين فهي على إحدى هذه الوجوه:
أن تكون بسبب تحقق سنن أخرى
أن تكون بسبب الإخلال بشرط من شروط النصر
ألا تكون هزيمة أصلًا، وإنما هي ضمن نطاق سنة النصر التي لا تنحصر في صورة واحدة
للنصر صور وأنواع مختلفة، ومن أهمها
الغلبة على الأعداء والظهور عليهم بالسيف والسنان.
الظهور بالحجة والبيان
التخليص من الأعداء والإنجاء منهم
منع الأعداء من تحقيق مرادهم من المسلمين
صدق الوعد الحق بعد تربص الأعداء، وعلوّ الكلمة وإظهارها
الفتح الدعوي ودخول الناس في الدين
إهلاك أعدائهم في حياتهم أو الانتقام منهم بعد مماتهم
مقياس الزمن في موعد النصر متعلق بميزان الله تعالى لا بميزان البشر
هناك فرق بين النصر الجزئي المرحلي، والنصر الكلي التام
الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها ليس معه ضمان الاستمرار إلا بقدر الثبات على شروط التمكين

سنة النصر والتمكين والاستخلاف

تابع 2

أدلة هذه السنة من الوحي

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾

﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢﴾

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾ وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾

﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٢٢ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤﴾

سنة النصر والتمكين والاستخلاف

تابع 3

الحِكَم والمقاصد من هذه السنّة

- إعلاء كلمة الله تعالى
- دخول الناس في دين الله سبحانه
- إكرام الله أولياءه واستجابته لدعائهم وشفاء صدورهم وإذهاب غيظ قلوبهم
- كبت أعداء الله الكفار، وقطع دابرهم، والانتقام منهم
- التوبة على الكفار إذا رأوا عز الإسلام
- إقامة الأئمة الهادين للناس تمام الهداية، القائمين بدين الله الحاكمين به

الثمرات المترتبة على الوعي بهذه السنة

- التوكل على الله تعالى والتعلق به وحده
- توطين النفس على الصبر
- تحقيق الطاعة لله ورسوله
- ثبات القلب وعدم الرهبة من الأعداء
- السعي لإقامة دين الله

تنزيل هذه السنّة على الواقع

- واقع الأمة الإسلامية لا ينبغي الحكم عليه بحكم واحد شامل للجميع، وذلك لأنّ الأمة لا تتحرك حركة واحدة تصدق عليها سلسلة السنن في محل واحد، بل هي متفاوتة في حركتها
- من أعظم ما تفتقده الأمة اليوم في أكثر أقطارها فيما يتعلق بسنة النصر والتمكين: الحَمَلَة المصلحون القائمون على أمر الله

السُّنَّةُ الرابعة:

سنة الإهلاك والأخذ والعقاب على الذنوب

السُّنَّةُ الرابعة:

سنة الإهلاك والأخذ والعقاب على الذنوب

أولاً: بيان معنى السنة.

هي السنة الإلهية القاضية بأخذ الظالمين وإهلاكهم في الدنيا قبل الآخرة، بأنواع العذاب الدنيوي.

وهي من أكثر السنن وروداً في القرآن الكريم، كما قال الشيخ عبد العزيز الجليّل: (وأحسب بالاستقراء لكتاب الله عزّ وجلّ أنّ هذه السنة من أكثر السنن وروداً في كتاب الله عز وجل، إن لم تكن أكثرها، كما أحسب أن هذه السنة تعد أصلاً لكثير من السنن، ترجع إليها، أو تعد من ثمراتها ولوازمها)[١].

وهذه السنة متصلة بسنة الإنذار، وسنة الإمهال، وسنة التدافع، وسنة المداولة، وسنة الابتلاء للمؤمنين، فهي سنة عظيمة، ولذلك كثر ذكرها وتكرارها في القرآن المكّي.



(١) السنن الإلهية في ضوء سورة الأنعام، عبد العزيز الجليّل (٩٤)

ثانياً: ضوابط منهجية لفهم هذه السنة:

١- الأصل في المعاقبة على الذنوب والمجازاة عليها أن يكون ذلك في الآخرة لا في الدنيا، غير أن الله ﷻ قد جعل نصيباً حتمياً من هذه العقوبات في الدنيا؛ تذكرةً وعبرة، وتطهيراً للأرض من الفساد حتى لا يستحكم فيها ويدوم، وانتقاماً من المجرمين وكبتاً لهم.

٢- هذا النصيب من العقاب الدنيوي يتحقق في الأمم والأقوام والمجتمعات أكثر من تحققه في الأفراد، فالفرد قد يؤاخذ بذنبه في الدنيا وقد لا يؤاخذ، بينما المجتمعات والأمم والأقوام لا بد أن تلحقهم السنن الإلهية في الدنيا إذا استوجبوا تحققها، وإن كان هذا اللحاق قد لا يشمل كل المذنبين في ذلك المجتمع؛ إذ قد يهلك البعض بهذا العقاب ويكون للبعض الآخر عبرة، ولأجل ذلك كله فإن هذه السنة تتطلب فقهاً دقيقاً -كما تقدم-.[(١)]

٣- أن هذه السنة لها صور متنوعة في طبيعة الأخذ والإهلاك، فليس مقتضاها بالضرورة هو الاستئصال التام لمن وقعت عليهم هذه السنة، بل قد تكون بالاستئصال العام، وقد تكون جزئية ينجو منها من ينجو، ومن أظهر صور هذه العقوبة الجزئية: أن تكون العقوبة على أيدي المؤمنين بتسليط الله إياهم على المجرمين بالجهاد والقتال في سبيل الله، وهذا النوع هو من أظهر أنواع العقوبات التي يجريها الله على المجرمين في الأمم المتأخرة، كما قال ابن تيمية ؒ: (وَمِن هَذَا أَنَّ الله شرع من عَذَاب الْكفَّار بعد نزُول التَّوْرَاة بأيدي

(١) انظر للتوسع: مبحث: خصائص السنن الإلهية من كتاب: (سنن الله في الأمم) د. حسن الحميد، الخاصية الرابعة، صفحة (٩٠)

الْمُؤمنِينَ فِي الْجِهَاد مَا لم يكن قبل ذَلِك، حَتَّى إِنَّه قيل لم ينزل بعد التَّوْرَاة عَذَاب عَام من السَّمَاء للأمم، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص:٤٣] فَإِنَّهُ قبل ذَلِك قد أهلك قوم فِرْعَوْن وَشُعَيْب ولوط وَعَاد وَثَمُود وَغَيرهم، وَلم يهْلك الْكفَّار بجهاد الْمُؤمنِينَ، وَلما كَانَ مُوسَى أفضل من هَؤُلَاءِ، وَكَذَلِكَ مُحَمَّد وهما الرسولان المبعوثان بالكتابين العظيمين كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المزمل:١٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [القصص:٤٨] إِلَى قَوْله: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾ [القصص:٤٩] وَأمر الله هذَيْن الرسولين بِالْجِهَادِ على الدّين، وَشَرِيعَةُ مُحَمَّد أكمل فلهَذَا كَانَ الْجِهَاد فِي أمته أعظم مِنْهُ فِي غَيرهم، فالجهاد للْكفَّار أصلح من هلاكهم بِعَذَاب سَمَاء، من وُجُوه:

أَحدهَا: أَن ذَلِك أعظم فِي ثَوَاب الْمُؤمنِينَ وأجرهم وعلو درجاتهم، لما يَفْعَلُونَهُ من الْجِهَاد فِي سَبِيل الله، لأَن تكون كلمة الله هِيَ الْعليا وَيكون الدّين كُله لله.

الثَّانِي: أَن ذَلِك أَنْفَع للْكفَّار أَيْضا فَإِنَّهُم قد يُؤمنُونَ من الْخَوْف، وَمن أُسر مِنْهُم وسِيمَ من الصغار يسلم أَيْضا، وَهَذَا من معنى قَوْله تَعَالَى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠] قَالَ أَبُو هُرَيْرَة رضي الله عنه: «وكنتم خير النَّاس للنَّاس تأتون بهم فِي الأقياد والسلاسل حَتَّى تدخلوهم الْجنَّة»[١] فَصَارَت الْأمة بذلك خير أمة أخرجت للنَّاس، وأفلح بذلك الْمُقَاتِلُونَ، وَهَذَا هُوَ مَقْصُود الْأَمر

---

(١) أخرجه البخاري من حديث سلمة بن دينار المدني عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم؛ حتى يدخلوا في الإسلام**» (٤٥٥٧).

بِالمَعْرُوفِ والنهي عَنِ المُنكر، وَهَذَا من معنى كَون مُحَمَّد مَا أرسل إِلَّا رَحْمَة لِّلْعَالمين، فَهُوَ رَحْمَةٌ في حق كل أحد بِحَسبِهِ، حَتَّى المكذبين لَهُ هُوَ فِي حَقهم رَحْمَة أعظم مِمَّا كَانَ غَيره)[1].

٤- المتأمل في كتاب الله ﷻ يجد أنّ هذه السنة العظيمة ليست متعلقة بمطلق الذنوب، فليس كل ذنب يشيع في مجتمع ما يوجب الإهلاك العام، بل هي مرتبطة بأنواع معينة من الذنوب ذكرها الله تعالى، كما أنّ هذا الإهلاك أو العقوبات مرتبطة بسنن أخرى تتداخل معها، ولكل ذلك شروط في الواقع لها تأثير على تحقق العقوبة أو رفعها، فهذه سنة تتطلب فقهاً دقيقاً، وتتبّعاً واسعاً لكتاب الله ﷻ، ومن أهم المعايير في فهم سبب هذه السنة هو **فقه الأوصاف التي يذكرها الله بعد أحوال الأمم التي أهلكها سبحانه**، وذلك أنّ الله تعالى بعد أن يذكر إهلاكه للأمم، كعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب وفرعون وقومه وأمثالهم، فإنه يلخّص حالهم بعد ذلك في صفةٍ واحدة أو صفات محددة، ويعلّق العاقبة بها؛ فاعتبارُ هذه الصفات وفهْمُها وتحريرها يؤدي إلى نتيجة دقيقة في فهم هذه السنة، وسأذكر شيئا من هذه الصفات على سبيل الإجمال هنا، ثم سأفصّل فيها في عرض الآيات بعد قليل إن شاء الله تعالى.

فمن هذه الصفات:

أ- صفة التكذيب كما في قوله سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [سورة الأنعام:١١] وقد وردت في القرآن في أربعة مواضع بهذا اللفظ.

---

(١) جامع الرسائل لابن تيمية: (٢/ ٣٣٦) فما بعدها.

ب- صفة الإجرام كما في قوله سبحانه: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة الأعراف:٨٤] وقد وردت في موضعين من القرآن بهذا اللفظ.

ج- صفة الإفساد كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة الأعراف:٨٦] وقد وردت في القرآن في ثلاثة مواضع بهذا اللفظ.

د- صفة الظلم كما في قوله سبحانه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس:٣٩] وقد وردت في موضعين من القرآن الكريم بهذا اللفظ.

وسيأتي الحديث الموسع عن هذه الصفات ومعانيها بإذن الله في موضع قريب.

٥- أن وجود بعض الصالحين في المجتمع الذي تحققت فيه هذه الصفات الموجبة للعقاب لا يدفع عن المجتمع العذاب، بل ولا عن الصالحين أنفسهم، حتى يكون لهم دورٌ في رفع المنكر أو النهي عنه، كما في النقطة التالية:

٦- أنّ وجود هذه الصفات السيئة التي جعلها الله سبحانه سبباً للعذاب والعقوبة، مُقابَلٌ بصفات وأعمال أخرى جعلها الله تعالى موانع من نزول العذاب، إمّا لكلِّ المجتمع أو على الأقل لمن يقوم بها، وأهمّ هذه الصفات المانعة: إنكار المنكر، والنهيُ عن السوء وعن الفساد في الأرض، والأخذُ على يد الظالم؛ فإذا وجدت هذه الصفات في عامة المجتمع وكان المجرمون قلة شبه

منعزلة، أو علا صوت الإصلاح وتحققت المدافعة للباطل بالحق؛ فإن الله ينجي هذا المجتمع.

وأما إذا علَت كلمة المجرمين دون نكير واسترخى الصالحون عن القيام بالنهي والإنكار نالهم العذاب جميعاً، فإن كان هناك قلة من المصلحين ينهون عن السوء دون تحقيق ممانعة حقيقية أمام الباطل فإنّ الله تعالى ينجي هؤلاء الناهين ويعاقب الباقين: الفاعل منهم والساكت، والأدلة على هذه التفصيلات كثيرة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، وسأذكر طرفاً منها:

أ- قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ [سورة الأعراف:١٦٥].

ب- قوله ﷻ: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ﴾ [سورة هود:١١٦].

ج- عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**مَثَلُ القائِمِ على حُدُودِ الله والواقع فيها، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا على سَفِينَةٍ، فأصابَ بَعْضُهُمْ أعْلاها وبَعْضُهُمْ أسْفَلَها، فَكانَ الَّذِينَ في أسْفَلِها إذا اسْتَقَوْا مِنَ الماءِ مَرُّوا على مَن فَوْقَهُمْ، فقالوا: لو أنّا خَرَقْنا في نَصِيبِنا خَرْقًا ولَمْ نُؤْذِ مَن فَوْقَنا، فإنْ يَتْرُكُوهُمْ وما أرادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وإنْ أخَذُوا على أيْدِيهِمْ نَجَوْا، ونَجَوْا جَمِيعًا**»[1].

د- وعن زينب بنت جحش رضي الله عنها قالت: اسْتَيْقَظَ النبيُّ ﷺ مِنَ النَّوْمِ مُحْمَرًّا وجْهُهُ يقولُ: «**لا إلَهَ إلّا اللهُ، ويْلٌ لِلْعَرَبِ مِن شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليومَ مِن رَدْمِ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ مِثْلُ هذِه**» - وعَقَدَ سُفْيانُ تِسْعِينَ أوْ مِئَةً -، قيلَ: أنَهْلِكُ

(١) رواه البخاري: (٢٤٩٣).

وفينا الصّالِحُونَ؟ قالَ: «**نَعَمْ، إذا كَثُرَ الخَبَثُ**»(١).

هـ- وقال أبو بكر الصديق ﷺ: «يا أيُّها النّاسُ إنّكم تَقرَؤونَ هذِهِ الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة:١٠٥]، وإنّي سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**إنّ النّاسَ إذا رأَوا الظّالمَ فلم يأخُذوا على يديهِ أوشَكَ أن يعُمَّهُمُ اللهُ بعقابِه**»(٢).

٧- كثيراً ما يبين الله سبحانه في كتابه عند ذكر هذه السنة، أنه لم يظلم المُعاقَبين سبحانه، وإنما هم الذين ظلموا أنفسهم، كما بيّن سبحانه قانوناً عاماً مطّرداً متعلقا بهذه السنة، ألا وهو أن الله لا يغيّر حال أي أمة من الأمم من النعمة إلى العقوبة والنقمة إلا إذا غيروا ما بأنفسهم، فتكون السنة معلقةً بفعل البشر وبما كسبته أيديهم، كما قال سبحانه:

أ-﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [سورة الأنفال:٥٣]، قال الطبري متأملاً في سياق الآية وموضعها من السورة -وكثيراً ما يفعل ذلك ويربط بين الآيات المتعلقة بالأمم السابقة وبين قوم النبي ﷺ الذين كذبوه وطردوه- قال ﷺ: (يقول تعالى ذكره: وأخذنا هؤلاء الذين كفروا بآياتنا من مشركي قريش ببدر بذنوبهم، وفعلنا ذلك بهم، بأنهم غيَّروا ما أنعم الله عليهم به من ابتعاثه رسولَه منهم وبين أظهرهم، بإخراجهم إياه من بينهم، وتكذيبهم له، وحربهم إياه، فغيرنا نعمتنا عليهم بإهلاكنا إياهم، كفِعْلنا ذلك في الماضين قبلهم ممن طغى علينا وعصى أمرنا)(٣).

---

(١) رواه البخاري: (٧٠٥٩)، ومسلم: (٢٨٨٠).
(٢) أخرجه أحمد في مسنده: (٣٠).
(٣) تفسير الطبري: (١١/ ٢٣٣).

ب- وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد:١١]، والأصل في هذه الآية أنها في التغيير من النعمة إلى النقمة، وليست في التغيير من السوء إلى الصلاح -وإن كانت تشملها بعموم اللفظ في تقرير بعض المفسرين-، وبناء على ذلك فإن اتخاذ هذه الآية شعاراً للإصلاح فيه نظر والله أعلم، قال الإمام ابن عاشور مبيناً أصل التغيير في هذه الآية: (والتَّغْيِيرُ: التَّبْدِيلُ بِالمغايِرِ، فَلا جَرَمَ أَنَّهُ تَهْدِيدٌ لِأُولِي النَّعْمَةِ مِنَ المشْرِكِينَ بِأَنَّهُم قَدْ تَعَرَّضُوا لِتَغْيِيرِها. فَما صَدَقَ (ما) الموْصُولَةِ حالَةٌ، والباءُ لِلْمُلابَسَةِ، أيْ حالَةٌ مُلابِسَةٌ لِقَوْمٍ، أيْ حالَةُ نِعْمَةٍ، لِأنَّها مَحَلُّ التَّحْذِيرِ مِنَ التَّغْيِيرِ، وأمّا غَيْرُها فَتَغْيِيرُهُ مَطْلُوبٌ.)[١] وعلى هذا التقرير عامة المفسرين الذين حملوا الآية على التغيير من النعمة إلى النقمة والعذاب، وسياق الآية يؤيده، وآية سورة الأنفال تقوي ذلك، والتي هي: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الأنفال:٥٣]، لكن هناك من استدل بالآية على مطلق التغيير، كما قال السعدي ﵀: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ [سورة الرعد:١١] من النعمة والإحسان ورغد العيش ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر ومن الطاعة إلى المعصية، أو من شكر نعم الله إلى البطر بها فيسلبهم الله عند ذلك إياها، **وكذلك إذا غير العباد ما بأنفسهم من المعصية**، فانتقلوا إلى طاعة الله، غير الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة)[٢].

٨- أن الله سبحانه يخفف العقوبات القدرية أو يزيلها إذا عُمل بالعقوبات الشرعية التي أمر بها سبحانه، كما قال ابن القيم ﵀، في نصّ بديع: (وعقوبات

(١) التحرير والتنوير: (١٣/ ١٠٢) لابن عاشور.
(٢) تفسير السعدي: (٤١٤).

الذنوب نوعان: شرعية وقدرية. فإذا أقيمت الشرعيةُ رفَعَتِ العقوباتِ القدريةَ أو خففتْها. ولا يكاد الربّ تعالى يجمع على عبده بين العقوبتين، إلا إذا لم تفِ إحداهما برفع موجَب الذنب ولم تكفِ في زوال دائه، وإذا عُطِّلت العقوبات الشرعية استحالت قدريةً، وربما كانت أشدّ من الشرعية، وربما كانت دونها، ولكنّها تعمّ، والشرعية تخصّ، فإنّ الرب تبارك وتعالى لا يعاقِب شرعًا إلا من باشر الجناية أو تسبّب إليها. وأما العقوبة القدرية فإنها تقع عامّةً وخاصّةً، فإنّ المعصية إذا خفيت لم تضرّ إلا صاحبَها، وإذا أُعلِنت ضرّت الخاصة والعامة. وإذا رأى الناس المنكر فاشتركوا في ترك إنكاره أوشك أن يعمّهم الله بعقابه. وقد تقدّم أنّ العقوبة الشرعية شرعها الله سبحانه على قدر مفسدة الذنب وتقاضي الطبع له، وجعلها سبحانه ثلاثة أنواع: القتل، والقطع، والجلد. وجعل القتل بإزاء الكفر وما يليه ويقرب منه، وهو الزنا واللواط، فإنّ هذا يفسد الأديان، وهذا يفسد الأنساب ونوع الإنسان)[(١)].

٩- إنّ موجب ذكر القصص الكثيرة المتعلقة بإهلاك الأمم هو الاعتبار والاتعاظ والادّكار، والخوف أن يصيب المتأخرين ما أصاب المتقدمين، ولذلك فقد ذم الله سبحانه الغفلة عن آياته التي يجريها في الأمم والأنفس والكون، وأكّد على أهمية أخذ العبرة، كما قال سبحانه:

(١) الداء والدواء، ابن القيم (٢٦١)

أ- ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [سورة آل عمران:١٣].

ب- وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سورة إبراهيم:٥]، قال الطبري رحمه الله: (وقوله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [سورة إبراهيم:٥] يقول عز وجلّ: وعِظْهُم بما سلف من نِعَمِي عليهم في الأيام التي خلت، فاجتُزِئ بذكر «الأيام» من ذكر النعم التي عناها، لأنها أيام كانت معلومة عندهم، أنعم الله عليهم فيها نعمًا جليلةً، أنقذهم فيها من آل فرعون بعدَ ما كانوا فيما كانوا [فيه] من العذاب المُهِين، وغرَّق عدوَّهم فرعونَ وقومَه، وأوْرَثهم أرضهم وديارَهم وأموالَهم.)[١].

وقال الرازي: (واعلم أن أيام الله في حق موسى عليه السلام منها ما كان أيام المحنة والبلاء، وهي الأيام التي كانت بنو إسرائيل فيها تحت قهر فرعون، ومنها ما كان أيام الراحة والنعماء مثل إنزال المن والسلوى وانفلاق البحر وتظليل الغمام.)[٢]

وقال ابن عاشور في كلام بديع: ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ أيام ظهورِ بَطْشِهِ وَغَلَبِهِ مَنْ عَصَوْا أمره، وتأييده المؤمنين على عدوهم، فإن ذلك كله مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ عزّة الله تعالى، وشاع إطلاق اسم اليوم مضافا إلى اسم شخص أو قبيلة على يوم انتصر فيه مسمى المضاف إليه على عدوه، يقال: أيام تميم، أي: أيام انتصارهم،

(١) تفسير الطبري: (١٣/ ٥٩٤).
(٢) تفسير الرازي: (١٩/ ٦٥).

فأيام الله أيام ظهور قدرته وإهلاكه الكافرين به ونصره أولياءه والمطيعين له.

فالمراد بـ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ هنا: الأيام التي أنجى الله فيها بني إسرائيل من أعدائهم ونصرهم وسخر لهم أسباب الفوز والنصر وأغدق عليهم النعم في زمن موسى عليه السلام، فإن ذلك كله مما أمر موسى بأن يذكرهموه، وكله يصح أن يكون تفسيرا لمضمون الإرسال؛ لأن إرسال موسى عليه السلام ممتد زمنه، وكلما أوحى الله إليه بتذكير في مدة حياته فهو من مضمون الإرسال الذي جاء به فهو مشمول لتفسير الإرسال، فقول موسى عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٠ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [سورة المائدة: ٢٠-٢١]، هو من التذكير المفسر به إرسال موسى عليه السلام، وهو إن كان واقعا بعد ابتداء رسالته بأربعين سنة فما هو إلا تذكير صادر في زمن رسالته، وهو من التذكير بأيام نعم الله العظيمة التي أعطاهم، وما كانوا يحصلونها لولا نصر الله إياهم، وعنايته بهم ليعلموا أنه رُبَّ ضعيفٍ غَلَبَ قويّا ونجا بضعفه ما لم ينج مثله القوي في قوته.

واسم الإشارة في قوله إن في ذلك لآيات عائد إلى ما ذكر من الإخراج والتذكير، فالإخراج من الظلمات بعد توغلهم فيها وانقضاء الأزمنة الطويلة عليها آية من آيات قدرة الله تعالى.

والتذكير بأيام الله يشتمل على آيات قدرة الله وعزته وتأييد من أطاعه. وكل ذلك آيات كائنة في الإخراج والتذكير على اختلاف أحواله.)[1]

(١) التحرير والتنوير: (١٣/ ١٨٩ -١٩٠) لابن عاشور.

جـ- ومن الآيات الدالة على الاعتبار بالعقوبات كذلك قوله سبحانه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [سورة يونس:٩٢].

وكما أن الله يحبّ منا التفكر في عقوبات الأمم والأقوام المكذبة فكذلك ينبغي على المؤمن أن يتفكر في العقوبات الفردية التي قد تصيب الإنسان بسبب ذنوبه، كما قال ابن القيم ﵀: (والمقصود أن عقوبات السيئات تتنوع: إما في القلب، وإما في البدن، وإما فيهما، وعقوبات في دار البرزخ بعد الموت، وعقوبات يوم عود الأجسام في الدار الآخرة، فالذنب لا يخلو من عقوبة البتة، ولكن لجهل العبد لا يشعر بما هو فيه من العقوبة؛ لأنه بمنزلة السكران والمخدر والنائم الذي لا يشعر بالألم، فإذا استيقظ وصحى أحس بالمؤلم، فتَرَتُّب العقوبات على الذنوب كترتب الإحراق على النار، والكسر على الانكسار، وقد تقارن المضرة الذنب، وقد تتأخر عنه إما يسيرًا وإما مدة، كما يتأخر المرض عن سببه أن يقارنه، وكثيرًا ما يقع الغلط للعبد في هذا المقام، ويذنب الذنب فلا يرى أثره عقيبه، ولا يدري أنه يعمل، وعمله على التدريج شيئا فشيئا، كما تعمل السموم والأشياء الضارة حذو القذة بالقذة)(١)

وقال الشيخ محمد بن عثيمين ﵀: (إن كثيرا من الناس اليوم يَعْزُون المصائب التي يصابون بها -سواء كانت المصائب مالية اقتصادية أو أمنية سياسية- يعزون هذه المصائب إلى أسباب مادية بحتة، إلى أسباب سياسية، أو أسباب مالية، أو أسباب حدودية، ولا شك أن هذا من قصور أفهامهم،

(١) الداء والدواء: (٢٧١ - ٢٧٢) لابن القيم.

وضعف إيمانهم، وغفلتهم عن تدبر كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.)[١].

١٠- قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [سورة الأنفال:٣٣]، لا ينفي العذاب مطلقاً عن هذه الأمة، ولا يعني رفع العذاب عن مستحقيه، بل هي كما قال الطبري ﵀ في تفسيرها بعد ذكر الخلاف والأقوال:

(وأولى هذه الأقوال عندي في ذلك بالصواب، قولُ من قال: تأويله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ يا محمد، وبين أظهرهم مقيم، حتى أخرجك من بين أظهرهم، لأنّي لا أهلك قرية وفيها نبيها. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ من ذنوبهم وكفرهم، ولكنهم لا يستغفرون من ذلك، بل هم مصرُّون عليه، فهم للعذاب مستحقون، كما يقال: «ما كنت لأحسن إليك وأنت تسيء إلي»، يراد بذلك: لا أحسن إليك إذا أسأت إليّ، ولو أسأت إليّ لم أحسن إليك، ولكن أحسن إليك لأنك لا تسيء إليّ، كذلك ذلك.

ثم قيل: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ بمعنى: وما شأنهم، وما يمنعهم أن يعذبهم الله وهم لا يستغفرون الله من كفرهم فيؤمنوا به، وهم يصدون المؤمنين بالله ورسوله عن المسجد الحرام؟

وإنما قلنا: هذا القول أولى الأقوال في ذلك بالصواب: لأن القوم -أعني مشركي مكة- كانوا استعجلوا العذاب، فقالوا: «اللهم إن كان ما جاء به محمد هو الحق، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم» فقال الله لنبيه: ما كنت لأعذبهم وأنت فيهم، وما كنت لأعذبهم لو استغفروا، وكيف لا

(١) أثر المعاصي على الفرد والمجتمعات (٦) لابن عثيمين.

أعذبهم بعد إخراجك منهم، وهم يصدون عن المسجد الحرام؟

فأعْلَمَه جلّ ثناؤه أن الذي استعجلوا العذاب حائق بهم ونازل، وأعلمهم حال نزوله بهم، وذلك بعد إخراجه إياه من بين أظهرهم، ولا وجه لإيعادهم العذابَ في الآخرة، وهم مستعجلوه في العاجل، ولا شك أنهم في الآخرة إلى العذاب صائرون، بل في تعجيل الله لهم ذلك يوم بدر، الدليلُ الواضحُ على أن القول في ذلك ما قلنا)[١].

قلتُ: ومن فقه الطبري أنه ربط الآية بالآيات قبلها المتصلة بها، وتوصل إلى أن فيها إثبات العذاب عليهم لا رفعه عنهم كما فهمه البعض، وهي قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الأنفال:٣١-٣٢].

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [سورة الأنفال:٣٣] الآية. قال الطبري ﵀، معلقاً على قول المشركين: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة الأنفال:٣٢] قال: (وكان ذلك العذاب، قتلُهم بالسيف يوم بدر)[٢] وهذا الذي قاله الطبري مهم جداً، فيومُ بدر هو يوم تحقق السنن الإلهية على المشركين، وذلك أن الله سبحانه توعدهم بالعذاب في السور المكية، وكان يوم بدر هو يوم صدق ذلك الوعد، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [سورة الدخان:١٦] فقد ثبت عن ابن مسعود ﵁

---

(١) تفسير الطبري: (١١/ ١٥٧).

(٢) تفسير الطبري: (١١/ ١٤٣).

أنه قال: البطشة الكبرى يوم بدر[1]، وقال ابن عاشور ﵀: (والبطشة الكبرى: هي بطشة يوم بدر فإن ما أصاب صناديد المشركين يومئذ كان بطشة بالشرك وأهله؛ لأنهم فقدوا سادتهم وذوي الرأي منهم الذين كانوا يسيرون أهل مكة كما يريدون)[2].

والمقصود أنّ سنة الإهلاك لم تُرفع عن مستحقيها من هذه الأمة، وأن التهديد المباشر لكفار قريش أنهم سيصيبهم ما أصاب الأمم المكذبة قبلهم دليل واضحٌ على استمرار السنن وعدم استثناء هذه الأمة منها، وهذا مقتضى كونها سنّة إلهية فضلاً عن وجود النصّ المحكم بكونها مستمرة لا تتبدل ولا تتحول، ووقوعُها إثباتٌ لها كذلك، وقد حصل هذا يوم بدر كما تقدم، وحصل في غيره كذلك.

غير أن مما ذهب إليه بعض أهل العلم أن العذاب على هذه الأمة لا يكون بالعذاب السماوي العام كما حصل للأمم السابقة وإنما بتسليط المؤمنين على المجرمين، كما قال ابن تيمية ﵀: (وَمن هَذَا أَن الله شرع من عَذَاب الْكفَّار بعد نزُول التَّوْرَاة بأيدي الْمُؤمنِينَ فِي الْجِهَاد مَا لم يكن قبل ذَلِك، حَتَّى إِنَّه قيل لم ينزل بعد التَّوْرَاة عَذَاب عَام من السَّمَاء للأمم)[3] ولا شكّ أنّ هذا صحيح إذا كان المقصود كامل الأمة المحمدية، لكن إذا كان المقصود أنه لا يحصل في هذه الأمة عذاب سماوي على بلدة ظالمة أو قوم مجرمين فهذا فيه نظر، فإنه -وإن كان الأصل فيما يحصل من العذاب على المجرمين من هذه الأمة أنه يكون بأيدي المؤمنين بالجهاد في سبيل الله- إلا أنّ ذلك لا ينفي العذاب السماوي الخاص، والله أعلم، ومن ذلك ما جاء من أحاديث الخسف بالجيش الذي يغزو الكعبة

(١) انظر: صحيح البخاري (٦٢٩)، وصحيح مسلم (٢٧٩٨).
(٢) التحرير والتنوير: (٢٥/ ٢٩٣) لابن عاشور.
(٣) جامع الرسائل لابن تيمية: (٢/ ٣٣٦) فما بعدها.

في آخر الزمان، وهو ما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنَّ النّبي ﷺ أنه قال: «**يَغزُو جَيْشٌ الكَعْبَةَ فإذا كانوا بِبَيْدَاءَ من الأرضِ يُخْسَفُ بأَوَّلِهِم وَآخِرِهِم**» قالت: قلتُ: يا رسول الله، كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أَسْوَاقُهُم وَمَنْ ليس منهم؟! قال: «**يخسف بأولهم وآخرهم ثم يُبْعَثُونَ على نِيَّاتِهِم**»[١].

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاري: (٢١١٨)، ومسلم: (٢٨٨٤).

ثالثاً: بيان أدلة هذه السنة من الوحي، وتحرير قول المفسرين فيها:

سبق القول في الضوابط المتعلقة بهذه السنة أنها ليست متعلقة بمطلق الذنوب، بل هي متصلة بأنواع معينة من الذنوب ذكرها الله سبحانه في كتابه، ووصَف بها الـمُهلَكين والمعذبين من الأمم والأقوام، وسأفصّل القول في بعض هذه الصفات والذنوب تحت عنوان (موجبات الإهلاك والمجازاة بالذنوب) وذلك بتتبع موارد ذكر هذه الصفات في القرآن ونقل أهم ما قاله المفسرون حولها بإذن الله تعالى.

موجبات الإهلاك والمجازاة في الدنيا بالذنوب للأمم والمجتمعات:

الصفة الأولى: الظلم، ويشمل الكفر والشرك وأنواع الذنوب الموجبة للهلاك:

إنّ من أكثر الصفات التي ذكرها الله ﷻ مقرونة بسنة الإهلاك هي صفة الظلم، حتى إنك لو أردت أن تُجمِل مجموع الصفات الموجبة لسنة الإهلاك في صفة واحدة، لقلت: هي الظلم. غير أن المتأمل في سياق الآيات المبيّنة لهذه الصفة يستبين له أن الظلم المقصود ليس منحصراً في معنى التسلط على الناس في أموالهم وحقوقهم، بل هم اسم عام يشمل: المعصية والكفر والشرك والإجرام والطغيان والتكذيب والجحود، ويشمل ظلم النفس وظلم الغير، فهو اسم جامع.

ولِبيانِ معنى الظلم المقصود وحدوده، ومدى تعلقه بالإهلاك في الدنيا، سأقف مع أربع آيات من كتاب الله تعالى بالتأمل والملاحظة وانتقاء أهم ما قاله أئمة التفسير في ذلك لتقريب هذا الـمَطلَب، مع العلم بأنّ الآيات الواردة في بيان العلاقة بين الظلم والإهلاك كثيرة جداً في القرآن، ولعل هذه الآيات الأربعة والكلام عليها يكون دليلاً لفقه ما بعدها من الآيات المقاربة:

١ - الآية الأولى: قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [سورة القصص:٥٩]

هذه الآية فيها دلالة على السنن الإلهية بقرينة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ و ﴿وَمَا كُنَّا﴾ وقد تقدم في القواعد المنهجية العامة للسنن، أن مثل هذه الصيغة دالة على السنن الإلهية، ولذلك قال ابن عاشور: (أي ما كان من عادتنا في عبادنا أن نهلك أهل القرى)[١] والعادة = السنّة، كما سبق تقريره.

وأما معنى الظلم في الآية، فهو اسم عام يدخل فيه -أول ما يدخل-: الكفر والشرك، ويشمل غير ذلك من الذنوب الموجبة للإهلاك والتي بينها الله في كتابه، وقد فسّر عامة المفسرين الظلم هنا بالشرك أو الكفر، كما قال الطبري رحمه الله: (وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [سورة القصص:٥٩]. يقول: ولم نكن لنهلك قرية وهي بالله مؤمنة إنما نهلكها بظلمها أنفسها بكفرها بالله، وإنما أهلكنا أهل مكة بكفرهم بربهم وظلم أنفسهم)[٢].

(١) التحرير والتنوير: (٢٠/ ١٥٣) لابن عاشور.
(٢) تفسير الطبري: (١٨/ ٢٩١).

غير أنّ هذا الشرك أو الكفر لا يستقلّ وحده ليكون سبباً في الإهلاك، بل كما قال القرطبي ﷺ في قوله سبحانه: ﴿إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [سورة القصص:٥٩] أي لم أهلكهم إلا وقد استحقوا الإهلاك **لإصرارهم على الكفر** بعد الإعذار إليهم)[١] فذكر معنى الإصرار على الكفر بعد الإعذار، كما قال الشوكاني ﷺ في تفسير الآية: (أي: وما كنا مهلكين لأهل القرى بعد أن نبعث إلى أمها رسولا يدعوهم إلى الحق، إلا حال كونهم ظالمين، قد استحقوا الإهلاك؛ **لإصرارهم على الكفر** بعد الإعذار إليهم، وتأكيد الحجة عليهم)[٢] وقال ابن عاشور ﷺ: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ أي ما كان من عادتنا في عبادنا أن نهلك أهل القرى في حالة ظلمهم أنفسهم بالإشراك، فالإشراك سبب الإهلاك، وإرسال رسول شرطه، فيتم ظلمهم بتكذيبهم الرسول)[٣].

٢- **الآية الثانية: قوله سبحانه:** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [سورة هود:١٠٢].

هذه الآية أتت في نهاية سياق قصص الـمُهلَكين الذين ذكرهم الله في سورة هود، وقد كانت أسباب إهلاكهم مختلفة، ولكنها أُجملَت في صفة الظلم بهذه الآية، كما قال الرازي ﷺ: (واعلم أن هذه الآية تدل على أن من أقدم على ظلم، فإنه يجب عليه أن يتدارك ذلك بالتوبة والإنابة؛ لئلا يقع في الأخذ الذي وصفه الله تعالى بأنه أليم شديد، ولا ينبغي أن يظن أن هذه الأحكام مختصة بأولئك المتقدمين؛ لأنه تعالى لما حكى أحوال المتقدمين قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ﴾ [سورة هود:١٠٢] فبين أن كل من شارك أولئك المتقدمين في

---

(١) تفسير القرطبي: (١٠/ ٢٨٠).
(٢) فتح القدير: (٤/ ٢٠٩) للشوكاني.
(٣) التحرير والتنوير: (٢٠/ ١٥٣) لابن عاشور.

فعل ما لا ينبغي، فلا بد وأن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد)[١].

وأما قوله سبحانه:﴿وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾ فقد قال فيه الطبري: (وهم ظَلَمة لأنفسهم بكفرهم بالله، وإشراكهم به غيره، وتكذيبهم رسله)[٢] فجعل الظلم هنا ظلم النفس بالكفر والتكذيب، ومما يرجح ذلك: الآية التي قبلها، والتي قال الله ﷻ فيها:﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [سورة هود:١٠١]، ولم يَفُتِ الطبري التنبّه إلى ارتباط هذه الآية بالسنن الإلهية -كعادته- فقال: (وهذا من الله تحذيرٌ لهذه الأمة أن يسلكوا في معصيته طريق من قبلهم من الأمم الفاجرة، فيحل بهم ما حلَّ بهم من المثُلات)[٣] ثم ذكر الحديث الصحيح الذي ربط فيه النبي ﷺ بين هذه الآية وبين سنة الإملاء للظالمين، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»، قال: ثم قرأ:﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾[سورة هود:١٠٢] »[٤].

وفي تفسير قوله ﴿ظَٰلِمَةٌ﴾ أيضاً قال مقاتل رحمه الله: ﴿وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾ أي: مُشْرِكة[٥]، وكذلك قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية: (والظُّلْمُ: الشِّرْكُ)[٦].

(١) مفاتيح الغيب: (١٨/ ٣٩٦-٣٩٧) للرازي.
(٢) تفسير الطبري: (١٢/ ٥٧١).
(٣) تفسير الطبري: (١٢/ ٥٧١).
(٤) رواه البخاري: (٤٦٨٦).
(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان: (٢/ ٢٩٨).
(٦) التحرير والتنوير: (١٢/ ١٦٠).

بينما نحا ابنُ عطية في تفسيرها إلى معنى مختلف، فقال ﷺ: (وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى ما ذكر من الأحداث في الأمم، وهذه آية وعيد تعم قرى المؤمنين؛ فإن ﴿ظَالِمَةٌ﴾ أعم من «كافرة»، وقد يمهل الله تبارك وتعالى بعض الكفرة، وأما الظلمة -في الغالب- فمعاجلون)[(١)] فجعل الظلم هنا بمعنى التعدي والتظالم في الحقوق.

٣- الآية الثالثة: قوله ﷻ: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [سورة الأنبياء:١١]

عند الوقوف على كلام المفسرين على هذه الآية نجد أنهم تعاملوا مع تفسير (الظلم) الوارد فيها بسعة المعنى ليشمل الكفر والشرك والتكذيب، كما قال الطبري ﷺ: (وكان ظلْمُها كفرها بالله وتكذيبها رسله، وقوله ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [سورة الأنبياء:١١] يقول تعالى ذكره: وأحدثنا بعد ما أهلكنا هؤلاء الظلمة من أهل هذه القرية التي قصمناها بظلمها قوما آخرين سواهم)[(٢)]

وقال الشوكاني ﷺ: (أي: وكم قصمنا من أهل قرية كانوا ظالمين: أي كافرين بالله مكذبين بآياته، والظلم في الأصل وضع الشيء في غير موضعه، وهم وضعوا الكفر في موضع الإيمان)[(٣)]

وقال ابن عاشور ﷺ: (وبضميمة وصف تلك الأمم بالظلم، أي الشرك، إيماء إلى سبب الإهلاك؛ فحصل منه ومن اسم الكثرة معنى العموم، فيعلم المشركون التهديد بأن ذلك حال بهم لا محالة بحكم العموم، وأن هذا ليس

---

(١) المحرر الوجيز: (٣/ ٢٠٦) لابن عطية.
(٢) تفسير الطبري: (١٦/ ٢٣٣ - ٢٣٤).
(٣) فتح القدير: (٣/ ٤٧٣) للشوكاني.

مرادا به قرية معينة)[١].

وهكذا نجد المفسرين يتواردون على تفسير الظلم هنا باسمه العام الذي يدخل فيه الشرك والكفر، غير أن مما ينبغي أن يلاحظ، أنه -مع تفسير الظلم بالكفر والشرك والتكذيب- إلا أن سياق الآيات يستبين منها **معنى الزيادة** في الكفر أو الشرك، وذلك بالفسق أو الإسراف والفجور والاستكبار ورد الآيات، فليست القضية مرتبطة بمجرد وجود الكفر أو الشرك -الذي هو الظلم العام- حتى يضاف إليها: العتوّ أو الإسراف أو الفسوق أو الجحود والاستكبار بعد رؤية الآيات والبينات، ومما يدل على ذلك في هذه الآية بعينها: سياقُ الآيات قبلها، حيث ذكر الله ﷻ قبلها بآيتين قوله تعالى:﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [سورة الأنبياء:٩] وفي ذلك يقول الطبري ﵀: (يقول تعالى ذكره: ثم صدقنا رسلَنا الذين كذبّهم أممهم وسألتهم الآيات، فآتيناهم ما سألوه من ذلك، ثم أقاموا على تكذيبهم إياها، **وأصرّوا على جحودهم نبوّتها بعد الذي أتتهم به من آيات ربها**، وعْدَنا الذي وعدناهم من الهلاك على إقامتهم على الكفر بربهم بعد مجيء الآية التي سألوا)[٢] والملاحظ في كلامه ﵀ أنه جعل العذاب نازلًا على من أصّر على الكفر بعد رؤية البيّنات والآيات، ولذلك قال الشوكاني ﵀: (والمراد بـ المسرفين المجاوزون للحد في الكفر والمعاصي، وهم المشركون.)[٣] وقال ابن عاشور ﵀: (والمسرفون: المفرطون في التكذيب بالإصرار والاستمرار عليه

(١) التحرير والتنوير: (١٧/ ٢٤) لابن عاشور.
(٢) تفسير الطبري: (١٦/ ٢٣١).
(٣) فتح القدير: (٣/ ٤٧١) للشوكاني.

حتى حل بهم العذاب.)[١] وهذا كله يبينّ والله أعلم أن المقصود بالظلم في هذه الآية ليس مطلق الكفر أو الشرك حتى يصاحبه معنى الإسراف فيه والجحود بعد رؤية البيّنات، وهذا يقودنا إلى الحديث عن آية أخرى في كتاب الله سأقف عندها وقفة مطوّلة لأهميتها في هذه السياق وأهمية كلام المفسرين عليها، وهي:

٤- **الآية الرابعة: قوله** ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [سورة هود:١١٧].

تقدم معنا في الآيات الثلاث السابقة أن المفسرين حملوا لفظ الظلم الوارد فيها على معنى الشرك والكفر، وإلى ذلك ذهب طائفة من أهل العلم في تفسير هذه الآية كذلك، ولكن تفسيرها بذلك فيه قدر من الإشكال، لأنّ الذي تدل عليه هذه الآية هو نفي الإهلاك وليس إثباته: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ [سورة هود:١١٧]، بينما في الآيات السابقة إثبات الإهلاك بسبب الظلم وليس نفيه، فكيف نتعامل مع ذلك؟ لا شك أن هذا إشكال واضح، ومن الإشكال كذلك فهْم قوله سبحانه عن هؤلاء بأنهم ﴿مُصْلِحُونَ﴾، فما المقصود بالإصلاح في هذه الآية؟

والجواب: أن الآية مستقيمة مع الآيات الأخرى لا تعارض بينها؛ لأنه قد سبق التقرير بأن الله لا يعذب على مجرد الكفر والشرك حتى يضاف إلى ذلك إما الفجور والفسق، أو الإسراف وتجاوز الحد في التكذيب أو الطغيان، أو ظلم الناس في حقوقهم والتسلط عليهم، فتكون الآية -على ذلك- مقيِّدة لسنة إهلاك الظالمين بحيث لا تكون هذه السنة على إطلاقها في كل كفر وشرك.

---

(١) التحرير والتنوير: (١٧/ ٢١).

وأما الإصلاح المقصود في هذه الآية فهو -عند طوائف من المفسرين-: ترك التظالم والبغي فيما بينهم، فيكون الإهلاك المراد في الآية على وجود هذا البغي والتظالم، لا على مطلق الكفر والشرك، كما قال الطبري ﵀: (وقد قيل معنى ذلك: لم يكن ليهلكهم بشركهم بالله، وذلك قوله «بظلم» يعني: بشرك، ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ فيما بينهم لا يتظالمون، ولكنهم يتعاطَون الحقّ بينهم، وإن كانوا مشركين، إنما يهلكهم إذا تظالموا)[١].

وقال البغوي ﵀: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ أي: لا يهلكهم بشركهم، ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ فيما بينهم يتعاطون الإنصاف ولا يظلم بعضهم بعضا، وإنما يهلكهم إذا تظالموا، وقيل: لا يهلكهم بظلم منه وهم مصلحون في أعمالهم، ولكن يهلكهم بكفرهم وركوبهم السيئات.)[٢].

وقال القرطبي ﵀: (قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي أهل القرى. ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي بشرك وكفر. ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق، أي لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط. ودلّ هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشرك، وإن كان عذاب الشرك في الآخرة أصعب. وفي صحيح الترمذي من حديث أبي بكر الصديق ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده**».)[٣].

---

(١) تفسير الطبري: (١٢/ ١٣٦).

(٢) معالم التنزيل في تفسير القرآن: (٤/ ٢٠٦) للبغوي.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: (٩/ ١١٤) للقرطبي.

وقال الواحدي بعد أن ذكر التفسير السابق: (وهذا التفسير يدل على أن الاجتراء على أنواع المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشرك)[1].

قال ابن تيمية ﷺ: (وأمور الناس إنما تستقيم مع العدل الذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: إن الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام، وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت وإن لم تقم بالعدل لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة)[2].

فهذا أهم ما قيل في تفسير هذه الآية على هذا الوجه، وفي هذه النصوص من الإشارات المهمة ما لا يخفى، غير أن هذا التفسير ليس محلّ إجماع بين المفسرين، فقد ذهب بعضهم إلى أن الظلم المنفي في الآية متعلق بالله سبحانه، أي ما كان ليعذبهم وهو ظالم لهم، وقد أورد ابن الجوزي الأقوال في الآية -وهذا منهجه في التفسير كما هو معلوم-، فقال: (قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: بغير جرم، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: بشرك، ذكره ابن جرير، وأبو سليمان.

(١) التفسير البسيط: (١١/ ٥٨٧) للواحدي.
(٢) الاستقامة: (٢/ ٢٤٦ - ٢٤٧) لابن تيمية.

وفي قولـه: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ثلاثـة أقـوال: **أحدهـا**: ينتصـف بعضهـم مـن بعـض، رواه قيس بـن أبي حـازم عـن جرير. قـال أبـو جعفر الطـبري: فيكـون المعنى: لا يهلكهـم إذا تناصفـوا وإن كانـوا مشركـين، وإنـما يهلكهـم إذا تظالمـوا.

والثـاني: مصلحـون لأعمالهـم، متمسـكون بالطاعـة، قالـه أبـو صالـح عـن ابـن عبـاس. **والثالـث**: مؤمنـون، قالـه مقاتـل)[١].

وقـد اعـترض ابـن عطيـة وأبـو السـعود رحمهـما الله تعـالى، على تفسـير الآية على النحـو الـذي ذهـب إليه البغـوي والقرطبي ومَـن نقلتُ عنهم مـن المفسرين، فقال ابـن عطية بعـد ذكـره لهـذا التفسـير: (وهـذا ضعيـف، وإنـما ذهـب قائلـه إلى نحـو ما قيـل: «إن الله تعـالى يمهـل الـدول عـلى الكفـر ولا يمهلهـا عـلى الظلـم والجـور». ولـو عكَـس لـكان ذلك متجهـا، أي: ما كان الله ليعذب أمـة بظلمهم في معاصيهم وهـم مصلحـون في الإيـمان، والاحتـمال الأول في ترتيبنا أصح إن شـاء الله)[٢].

وقـال أبـو السـعود: (وقيـل: المـراد بالظلـم الـشرك، والبـاء للسـببية، أي: لا يهلـك القـرى بسـبب إشراك أهلها وهـم مصلحـون يتعاطون الحق فيـما بينهم، ولا يضمـون إلى شركهـم فسـادا آخـر، وذلك لفرط رحمتـه ومسـامحته في حقوقه تعالى، ومـن ذلـك قـدم الفقهـاء عنـد تزاحـم الحقـوق حقـوق العبـاد الفقراء عـلى حقوق الله تعـالى الغنـي الحميـد. وقيـل: الملك يبقـى مع الـشرك ولا يبقـى مـع الظلـم، وأنـت تـدري أن مقـام النهـي عن المنكـرات التـي أقبحها الإشراك بـالله لا يلائمه، فـإن الـشرك داخـل في الفسـاد في الأرض دخـولا أوليا، ولذلـك كان ينهى كلٌّ من الرسـل الذيـن قصـت أنباؤهـم أمتـه أولا عـن الإشراك، ثـم عـن سـائر المعـاصي

(١) زاد المسير في علم التفسير: (٢/ ٤٠٨) لابن الجوزي.
(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: (٣/ ٢١٥) لابن عطية.

التي كانوا يتعاطونها، فالوجه حمل الظلم على مطلق الفساد الشامل للشرك وغيره من أصناف المعاصي، وحمل الإصلاح على إصلاحه والإقلاع عنه بكون بعضهم متصدين للنهي عنه وبعضهم متوجهين إلى الاتعاظ غير مصرين على ما هم عليه من الشرك وغيره من أنواع الفساد»[1].

ومما يعين على الترجيح بعد هذا الاستعراض لكلام المفسرين: النظر في الأمثلة التي ذكرها الله تعالى للقوم المهلكين في نفس السورة خاصة -وهي سورة هود-، وفي القرآن عامة في الآيات التي ذكرها الله في سنّة الإهلاك، وسيأتي بيانه بإذن الله تعالى، غير أن مما يلفت الانتباه في سورة هود التي وردت فيها الآيةُ المقصودةُ بالبحث، وهي: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [سورة هود:١١٧] والتي ورد فيها قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ [سورة هود:١٠٢]، الملاحظ أنّها سورة تكرر فيها ذكر الإهلاك، وتكرر فيها وصف الظلم لتلك الأمم الـمُهلَكة، ومما جاء فيها من ذلك: قوله سبحانه: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [سورة هود:٣٧]، وقوله: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [سورة هود:٦٧-٦٨]. وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [سورة هود:٩٤]، وقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة هود:١١٦].

(١) تفسير أبي السعود: (٤/ ٢٤٧ -٢٤٨).

ومن المعلوم أنّ كلّ هذه الأمم لم تؤاخذ بمطلق الكفر وإنما بتجاوز الحدّ إمّا بالإصرار عليه والجحود بعد رؤية البينات أو بالتظالم فيما بينهم، ونحو ذلك.

ومما يعين على الترجيح كذلك: قوله ﷻ: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [سورة الإسراء:١٦] قال ابن القيم ؒ: (فإن قيل: فمعصيتهم السابقة سبب لهلاكهم فما الفائدة في قوله: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ وقد تقدم الفسق منهم؟ قيل: المعصية السابقة وإن كانت سببا للهلاك، لكن يجوز تخلف الهلاك عنها، ولا يتحتم، كما هو عادة الرب تعالى المعلومة في خلقه، أنه لا يتحتم هلاكهم بمعاصيهم، فإذا أراد إهلاكهم ولا بد، أحدث سببا آخر يتحتم معه الهلاك.

ألا ترى أن ثمود لم يهلكهم بكفرهم السابق حتى أخرج لهم الناقة فعقروها فأهلكوا حينئذ؟

وقوم فرعون لم يهلكهم بكفرهم السابق بموسى حتى أراهم الآيات المتتابعات واستحكم بغيهم وعنادهم؛ فحينئذ أهلكوا.

وكذلك قوم لوط لما أراد هلاكهم أرسل الملائكة إلى لوط في صورة الأضياف فقصدوهم بالفاحشة ونالوا من لوط وتواعدوه، وكذلك سائر الأمم إذا أراد الله هلاكهم أحدث لها بغيا وعدوانا يأخذها على أثره، وهذه عادته مع عباده عموما وخصوصا؛ فيعصيه العبد وهو يحلم عنه ولا يعاجله حتى إذا أراد أخذه قيض له عملا يأخذه به مضافا إلى أعماله الأولى؛ فيظن الظان أنه أخذه بذلك العمل وحده وليس كذلك بل حق عليه القول بذلك وكان قبل ذلك لم يحق عليه القول بأعماله الأولى؛ حيث عمل ما يقتضي ثبوت الحق عليه، ولكن لم

يحكم به أحكم الحاكمين، ولم يمض الحكم، فإذا عمل بعد ذلك ما يقرر غضب الرب عليه أمضى حكمه عليه وأنفذه قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [سورة الزخرف:٥٥]، وقد كانوا قبل ذلك أغضبوه بمعصية رسوله ولكن لم يكن غضبه سبحانه قد استقر واستحكم عليهم؛ إذ كان بصدد أن يزول بإيمانهم، فلما أيس من إيمانهم تقرر الغضب واستحكم؛ فحلت العقوبة.

فهذا الموضع من أسرار القرآن، وأسرار التقدير الإلهي، وفِكْرُ العبد فيه من أنفع الأمور له، فإنه لا يدري أي المعاصي هي الموجبة التي يتحتم عندها عقوبته فلا يقال بعدها والله المستعان)[١].

والخلاصة في هذه المسألة -والله أعلم-: أنّ وصف الكفر والشرك في الأمم الـمُهلَكة وصف أساسي مؤثر في حلول هذه السنّة، غير أنّه لا يستقل بمجرده لتحققها حتى يضاف إليه: التكذيب والاستكبار والجحود بعد رؤية الآيات وطول الإنذار، أو يضاف إليه البغي والطغيان والإفساد في الأرض بالتظالم في الحقوق أو التسلط على الناس ونحو ذلك، أو يكون معه إسراف وفجور وفسق ومكرٌ وعتوّ، ونحو ذلك من الصفات المؤثرة في الإهلاك، المبيَّنة في الكتاب العزيز، والتي سيأتي التفصيل في بعضها إن شاء الله.

الصفة الثانية[٢] من الصفات الموجبة للهلاك: الإفساد في الأرض:

تقدم في بداية الكتاب عند ذكر القواعد المنهجية العامة للسنن، أن التعبير عن السنن في القرآن لا ينحصر في لفظ (السنة) بل يأتي بصيغ متعددة، من

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: (١/ ١٦٧ -١٦٨) لابن القيم.
(٢) انظر الصفة الأولى ص: ١٤٠

أظهرها وأشهرها قوله سبحانه: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [سورة آل عمران:١٣٧]، ثم تُذكَر الصفة التي تسببت في تلك العاقبة، فيُفهم منها أنّ الإهلاك الذي نزل بهم إنما هو لتلك الصفة وأنه ليس خاصاً بمن سمّى الله من الأقوام، بل هو عام لمن تلبّس بمثل هذا الوصف، فيجري ذلك مجرى السنن الإلهية في إهلاك المستحقين للإهلاك.

ومن جملة الصفات التي ذكرها الله سبحانه بهذا الأسلوب: **صفة الإفساد**، وقد تكرر هذا في القرآن بلفظه ثلاث مرات، فقال ﷻ في سورة الأعراف: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة الأعراف:٨٦]، وفي الموضع الآخر من الأعراف كذلك: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة الأعراف:١٠٣]، وفي سورة النمل: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة النمل:١٤].

وكذلك قوله سبحانه في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [سورة الفجر:٦-١٤].

ففي هذه الآيات ذِكرٌ لأبرز الأمم المُهلَكة، ثم جعل الله سبحانه سبب إهلاكها: الطغيان والفساد في الأرض، وهي آيات عامة متعلقة بالسنن كذلك، وليست خاصة بالأقوام المُسَمّين، كما قال ابن عاشور رحمه الله: (أي أن الله

بالمرصاد لكل طاغ مفسد)[١]. وقال الشيخ ابن عثيمين في تفسيره مبيّناً ارتباط هذه الآيات بسنّة الله الدائمة: (قال الله تعالى:﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ الخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أو لكلِّ من يتوجَّه إليه الخطاب، يبيِّن الله عز وجل أنه بالمرصاد لكلِّ مَن طغى واعتدى وتكبَّر، فإنه له بالمرصاد، سوف يُعاقبه ويُؤاخذه، وهذا المعنى له نظائر في القرآن الكريم؛ منها قوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [سورة محمد:١٠]، وكقول شعيب لقومه: ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [سورة هود:٨٩]، فسُنَّة الله ﷻ واحدةٌ في المكذِّبين لرسله، المستكبرين عن عبادته، هو لهم بالمرصاد، وهذه الآية تفيد التهديد والوعيد لمن استكبر عن عبادة الله أو كذَّبَ خبره.)[٢] وفي هذه الأدلة كفاية في إثبات ارتباط صفة الإفساد في الأرض بسنة الإهلاك في الدنيا، نسأل الله العفو والعافية.

ولكن ما الذي يدخل في الإفساد في الأرض فيتعلق به العذاب؟

إذا تأملنا مواضع ذكر الفساد والمفسدين في القرآن نجد أن فيها وصف كثير من الأفعال والأقوام بذلك، فجاء هذا الوصف على المنافقين، وعلى الطغاة المتجبرين كفرعون وعاد وثمود، وعلى اليهود كذلك، كما نجد هذا التنوع في الأفعال كذلك، فأُطلق الفساد -في القرآن- على المعاصي والكفر، وأُطلق -كذلك- على القتل والتدمير، وعلى لبس الحق بالباطل، وغير ذلك.

---

(١) التحرير والتنوير: (٣٠/ ٣٢٣) لابن عاشور.

(٢) تفسير ابن عثيمين: جزء عم (١٩٥).

وبما أنّ الإفساد في الأرض من أهم الصفات المرتبطة بسنة الإهلاك: فلا بد من بيان حدود هذا الإفساد، والوقوف مع بعض الآيات بالتأمل والتفكر والملاحظة، مع نقل أهم ما قاله المفسرون حولها، وسأُجمل أولاً أهم ما يدخل في معنى الفساد في الأرض ثم أتناول الآيات الواردة في ذلك بصورة مفصّلة، ثم نخرج بعد ذلك كله بخلاصة واضحة بإذن الله حول علاقة السنن الإلهية بالفساد في الأرض، وصور الفساد المعتبرة في هذه السنة.

ومن خلال التتبع لمعنى الإفساد في الأرض نجد أنه يأتي على معانٍ كثيرة، منها:

١- الظلم والقهر للمستضعفين والتسلط عليهم بالقتل والتحكّم بغير حق.

٢- الجحود والتكذيب والاستكبار بعد رؤية الآيات، وعدم الاعتبار بها.

٣- الكفر بالله، والإسراف في المعاصي والذنوب.

٤- الإخلال بميزان العدل بين الناس، في المعاملات الاقتصادية وغيرها.

٥- الطغيان وتجاوز الحد، والعتوّ والاستكبار في الأرض.

٦- العمل بالفواحش واستحلالها ونشرها، وخاصة عمل قوم لوط.

٧- الصد عن سبيل الله ومحاربة المصلحين.

٨- قطع ما أمر الله بوصله، وتضييع ما أمر الله بحفظه.

وبعد هذا الإجمال سأقف بشيء من التفصيل على بعض الآيات الواردة في معنى الإفساد في الأرض وموارد إطلاقاته في القرآن الكريم، وذلك في الفقرات التالية:

أولاً: أكثر ما جاء في القرآن من إطلاق وصف الإفساد والمفسدين على قوم معينين هو على فرعون وقومه، ومنه تستبين بعض وجوه الإفساد في الأرض بالنظر إلى صوره في فرعون وقومه، خاصة وأن فرعون وقومه من أبرز الأمثلة التي يضربها الله في القرآن لسنته في إهلاك الأمم.

ومن الآيات التي وردت في وصف فرعون وقومه بالإفساد:

١- قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [سورة القصص:٤].

والإفساد هنا فيه معنى الظلم والقهر للمستضعفين والتسلط عليهم بالقتل والتحكّم بغير حق.

٢- وقال سبحانه كذلك عن فرعون: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة يونس:٩١].

٣- وقال سبحانه عنهم أيضاً: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة الأعراف:١٠٣].

والإفساد في هذه الآية فيه معنى الجحود والتكذيب والاستكبار بعد رؤية الآيات، وعدم الاعتبار بها، يوضح ذلك:

٤- الآية الأخرى في سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة النمل:١٣-١٤].

وهذا المعنى -الذي هو جحود الحق بعد رؤية آياته- من أهم أسباب التعذيب والإهلاك التي يذكرها الله في كتابه.

٥- ومن الآيات التي جاء فيه وصف قوم فرعون بالإفساد كذلك، قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة يونس:٨١].

٦- ومن الآيات المهمة في هذا السياق كذلك -وإن كانت ليست خاصة بفرعون وقومه بل تشمل عادا وثمود كذلك- قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [سورة الفجر:٦-١٤].

ونلاحظ هنا أن الكثرة في الفساد معتبرة في نزول العذاب، لقوله سبحانه: ﴿فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ وهذا يذكرنا بالحديث الصحيح، الذي سُئل فيه النبيُّ ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**»[(١)].

وأما الفساد المقصود في هذه الآيات ففيه معنىً زائدٌ على مجرد الكفر أو المعصية، إذْ فيه معنى الطغيان أو لازمه، كما قال البقاعي ﵀:﴿فَأَكْثَرُواْ﴾ عَقِبَ طُغْيانِهِمْ وبِسَبَبِهِ ﴿فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ بِما فَعَلُوا مِنَ الكُفْرِ والظُّلْمِ مِمّا صارَ سُنَّةً لِمَن سَمِعَ بِهِ.)[(٢)]، وقال ابن عاشور ﵀: (والطغيان: شدة العصيان والظلم، ومعنى طغيانهم في البلاد أن كل أمة من هؤلاء طغوا في بلدهم، ولما كان بلدهم من جملة البلاد أي: أرض الأقوام، كان طغيانهم في بلدهم قد أوقع الطغيان في البلاد؛ لأن فساد البعض آيل إلى فساد الجميع بسن سنن السوء، ولذلك

---

(١) أخرجه البخاري: (٧٠٥٩)، ومسلم: (٢٨٨٠).

(٢) تفسير البقاعي: (٢٢/ ٣٠).

تسبب عليه ما فرع عنه من قوله: ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾، والفساد: سوء حال الشيء ولحاق الضر به، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ [سورة البقرة:٢٠٥] وضد الفساد الصلاح، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ وكان ما أكثروه من الفساد سببا في غضب الله عليهم، والله لا يحب الفساد فصب عليهم العذاب)[1]

وكذلك ذكر الشيخ ابن عثيمين ﷺ فقال: (معنى ﴿طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ أي: زادوا عن حدِّهم واعتدوا على عباد الله)[2]، وكذلك ذكر شيخه السعدي ﷺ، وجعل ذلك الإفساد متضمناً محاربة الرسل، فقال: ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ وهو العمل بالكفر وشعبه، من جميع أجناس المعاصي، وسعوا في محاربة الرسل وصد الناس عن سبيل الله)[3].

وعلى ضوء ذلك نفهم الإطلاقات الواردة عن بعض السلف في تفسير الفساد في الآية بالمعاصي، كما قال السدّي في قوله: ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾، قال: «بالمعاصي».[4] وقال الطبري ﷺ: (يقول تعالى ذكره: فأكثروا في البلاد المعاصي، وركوب ما حرّم الله عليهم)[5]، فتُحمَل على معنى تجاوز الحد، والظلم لعباد الله، والإفساد في الأرض بالمعاصي والكفر ومحاربة المصلحين والصد عن سبيل الله، كما مرّ في أقوال المفسرين الآخرين، والله أعلم.

(١) التحرير والتنوير: (٣٠/ ٣٢١) لابن عاشور، باختصار.
(٢) تفسير ابن عثيمين/ جزء عم: (١٩٤).
(٣) تفسير السعدي: (٩٢٣).
(٤) موسوعة التفسير بالمأثور: (٢٣/ ٢٠٧).
(٥) تفسير الطبري: (٢٤/ ٣٧٣).

ثانياً: ورد إطلاق وصف الإفساد على قوم شعيب عليه السلام، وهم من الأمم الـمُهلَكة والمعذبة التي تكرر ذكر إهلاكها في القرآن الكريم كذلك، ومن الآيات الواردة فيهم ما يلي:

١- قوله سبحانه وتعالى عن قوم شعيب عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأعراف:٨٥]

والإفساد في الأرض هنا هو بما كانوا يفعلونه من الغش، وبما كانوا يصدون عن سبيل الله، وبما كانوا يرتكبون من المعاصي، قال مقاتل في تفسير الآية: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾: بعد الطاعة في نقصان الكيل والميزان، فإنّ المعاصي فساد المعيشة، وهلاك أهلها)[١].

وقال ابن الجوزي رحمه الله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا تعملوا فيها بالمعاصي بعد أن أصلحها الله بالأمر بالعدل، وإرسال الرسل.)[٢]

وقال البقاعي رحمه الله: (ولما نهى عن الفساد بالبخس، عم كل فساد فقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا﴾ أي: توقعوا الفساد ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ بوضع شيء من حق الحق أو الخلق في غير موضعه. ولما نهاهم عن هذه الرذائل ذكر بنعمة الله تأكيدا للنهي بما في ذلك من التخويف وحثا على التخلق بوصف السيد، فقال: ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ أي: إصلاح الله لها بنعمة الإيجاد الأول بخلقها وخلق منافعها وما فيها، على هذا النظام البديع المحكم، ثم بنعمة الإبقاء الأول بإنزال الكتب

(١) تفسير مقاتل بن سليمان: (٢/ ٤٨).
(٢) زاد المسير في علم التفسير: (٢/ ١٣٧) لابن الجوزي.

وإرسال الرسل ونصب الشرائع التي بها يحصل النفع وتتم النعمة بإصلاح أمر المعاش والمعاد بتعظيم أمر الله والشفقة على خلق الله، ويجمع ذلك كله التنزه عن الإساءة).[١]

وبعد أن نهاهم شعيب عليه السلام عن الإفساد كان يُذكّرهم بالسنن الإلهية المتعلقة بالمفسدين، فقال لهم -في الآية التالية-:

٢- ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة الأعراف:٨٦]. والمفسدون المقصودون بهذه الآية هم المُهلَكون قبلهم من الأمم، كما قال الطبري رحمه الله: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، يقول: وانظروا ما نزل بمن كان قبلكم من الأمم حين عتوا على ربهم وعصوا رسله، من المَثُلات والنقمات، وكيف وجدوا عقبى عصيانهم إياه، ألم يُهلك بعضهم غرقًا بالطوفان، وبعضهم رجمًا بالحجارة، وبعضهم بالصيحة؟ و«الإفساد»، في هذا الموضع، معناه: معصية الله)[٢].

٣- وقال شعيب عليه السلام لقومه كذلك: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [سورة هود:٨٥].

٤- وقال لهم: ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝١٨٢ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝١٨٣﴾ [سورة الشعراء:١٨٢-١٨٣].

(١) تفسير البقاعي: (٧/ ٤٦٠-٤٦١).
(٢) تفسير الطبري: (١٠/ ٣٦١).

فهذه مواضع متعددة في القرآن يصف الله فيها قوم شعيب بأنهم مفسدون أو يحذرهم من الإفساد في الأرض، ومن المعلوم أن من أبرز صور إفسادهم كانت في التظالم المالي وأكل أموال الناس بالباطل، هذا بالإضافة إلى استكبارهم على المؤمنين وصدهم عن سبيل الله.

ثالثاً: ورد إطلاق وصف الإفساد على قوم لوط ﵇ كما في قوله سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [سورة العنكبوت:٣٠]، قال ابن عاشور: (ووصفهم بـ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ لأنهم يفسدون أنفسهم بشناعات أعمالهم، ويفسدون الناس بحملهم على الفواحش وتدريبهم بها، وفي هذا الوصف تمهيد للإجابة بالنصر؛ لأن الله لا يحب المفسدين.)[١] وفي البسيط للواحدي: (قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ يعني: العاصين بإتيان الرجال في أدبارهم. قاله الكلبي ومقاتل)[٢]

رابعاً: وصف الله اليهود بالإفساد في قوله: ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [سورة المائدة:٦٤]، نقل الواحدي في تفسيره على هذه الآية: (قال ابن عباس: «يريد سفكوا الدماء، واستحلوا المحارم، وقال الزجاج: أي يجتهدون في دفع الإسلام، ومحو ذكر النبي ﷺ من كتبهم»)[٣]، ووصَفهم بالإفساد في الأرض كذلك في قوله سبحانه: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [سورة الإسراء:٤]، وسأقف مع هذه الآية في ختام الحديث عن سنة الإهلاك بإذن الله تعالى.

---

(١) التحرير والتنوير: (٢٠/ ٢٤٠) لابن عاشور.
(٢) التفسير البسيط: (١٧/ ٥٢١) للواحدي.
(٣) التفسير البسيط: (٧/ ٤٦٤) للواحدي.

خامساً: وصف الله المنافقين بالإفساد في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [سورة البقرة:١١].

قال الطبري ﷺ: (الإفساد في الأرض، العمل فيها بما نهى الله جلّ ثناؤه عنه، وتضييعُ ما أمر الله بحفظه، فذلك جملة الإفساد، كما قال جل ثناؤه في كتابه مخبرًا عن قِيلِ ملائكته: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [سورة البقرة:٣٠]، يعنون بذلك: أتجعل في الأرض من يَعْصِيكَ ويُخالف أمرك؟ فكذلك صفة أهل النفاق: مُفسدون في الأرض بمعصِيَتهم فيها ربَّهم، وركوبهم فيها ما نَهاهم عن ركوبه، وتضييعِهم فرائضَه، وشكِّهم في دين الله الذي لا يقبَلُ من أحدٍ عملا إلا بالتَّصديق به والإيقان بحقيقته، وكذِبِهم المؤمنين بدَعواهم غير ما هم عليه مقيمُون من الشّك والرَّيب، وبمظاهرتهم أهلَ التكذيب بالله وكُتُبه ورسله على أولياء الله، إذا وجدوا إلى ذلك سبيلا. فذلك إفساد المنافقين في أرض الله)[١]

وقال ابن كثير معلقاً على كلام الطبري -رحمهما الله- : (وهذا الذي قاله حسن، فإن من الفساد في الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء، كما قال تعالى:﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [سورة الأنفال:٧٣]، فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين كما قال:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٤٤]، ثم قال:﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء:١٤٥]، فالمنافق لما كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين، فكأن الفساد من جهة المنافق حاصل؛ لأنه هو

(١) تفسير الطبري: (١/ ٢٩٩).

الذي غر المؤمنين بقوله الذي لا حقيقة له، ووالى الكافرين على المؤمنين، ولو أنه استمر على حالته الأولى لكان شره أخف، ولو أخلص العمل لله وتطابق قوله وعمله لأفلح وأنجح؛ ولهذا قال تعالى:﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة:١١]، أي: نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين، ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء، كما قال محمد بن إسحاق، عن محمد ابن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة:١١]، أي: إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب. يقول الله:﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٢]، يقول: ألا إن هذا الذي يعتمدونه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فسادا)[١]

وقال ابن عاشور: (وقد عَنَّ لِي في بيان إيقاعهم الفساد أنه مراتب:

أولها: إفسادهم أنفسهم بالإصرار على تلك الأدواء القلبية التي أشرنا إليها فيما مضى وما يترتب عليها من المذام ويتولد من المفاسد.

الثانية: إفسادهم الناس ببث تلك الصفات، والدعوة إليها، وإفسادهم أبناءهم وعيالهم في اقتدائهم بهم في مساويهم كما قال نوح عليه السلام: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٧].

الثالثة: إفسادهم بالأفعال التي ينشأ عنها فساد المجتمع، كإلقاء النميمة والعداوة وتسعير الفتن وتأليب الأحزاب على المسلمين وإحداث العقبات في طريق المصلحين. والفساد أصله استحالة منفعة الشيء النافع إلى مضرة به أو

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٩٢).

بغيره، وقد يطلق على وجود الشيء مشتملا على مضرة، وإن لم يكن فيه نفع من قبل، يقال: فسد الشيء بعد أن كان صالحا ويقال: فاسد إذا وجد فاسدا من أول وهلة، وكذلك يقال: أفسد إذا عمد إلى شيء صالح فأزال صلاحه، ويقال: أفسد إذا أوجد فسادا من أول الأمر، والأظهر أن الفساد موضوع للقدر المشترك من المعنيين...، فالإفساد في الأرض منه تصيير الأشياء الصالحة مضرة كالغش في الأطعمة، ومنه إزالة الأشياء النافعة كالحرق والقتل للبرآء، ومنه إفساد الأنظمة كالفتن والجور، ومنه إفساد المساعي كتكثير الجهل وتعليم الدعارة وتحسين الكفر ومناوأة الصالحين المصلحين، ولعل المنافقين قد أخذوا من ضروب الإفساد بالجميع، فلذلك حذف متعلق تفسدوا تأكيدا للعموم المستفاد من وقوع الفعل في حيز النفي.)[1]

ومن الجدير بالذكر في ختام البحث في وصف الإفساد في الأرض أنه لا تنحصر العلاقة بين صفة الإفساد في الأرض وبين سنة الإهلاك فحسب، بل ترتبط بسنّة أخرى، وهي سنة: التدافع، وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [سورة البقرة:٢٥١].

الصفة الثالثة من الصفات الموجبة للهلاك: أعمال المترفين من الفسق والتكذيب ومحاربة الحق:

يتبين للمتأمل في كتاب الله تعالى ارتباط سنة الإهلاك للأمم بالترف والمترفين، وارتباط الترف بالأسباب الأخرى الموجبة للهلاك، فالترف وحده ليس سبب الإهلاك والأخذ، وإنما لوازم الترف وتصرفات المترفين هي الموجبة

(١) التحرير والتنوير: (١/ ٢٨٤ – ٢٨٥) لابن عاشور.

لذلك، فالمترفون في العادة هم السادة وأصحاب النفوذ، وهم على مر التاريخ: المكذبون بالرسل، كما قال ﷻ في آية عامّة تبيّن حال المترفين مع دعوة الرسل كلهم، وتبيّن عاقبتهم كذلك: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ۝٢٣ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٢٤ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝٢٥﴾ [سورة الزخرف:٢٣-٢٥]، فلاحظ كيف بيّن الله تعالى أن المكذبين بالرسل دائماً هم المترفون، ثم أمر بالنظر في عاقبتهم، وهذا يقتضي أنه أهلكهم ودمّرهم سبحانه، فهذه آية عامّة متعلقة بكل مراحل التاريخ.

ثم سأقف بشيء من التفصيل مع بعض الآيات المهمة المتعلقة بمعنى إهلاك المترفين، مع بيان علاقتها بالصفات الأخرى الموجبة للإهلاك، وذلك كما يلي:

١- **قوله** ﷻ: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [سورة الإسراء:١٦].

هذه الآية مرتبطة بالسنن الإلهية ارتباطاً وثيقاً، وهي من أهم الآيات في بيان سنّة الإهلاك، وفيها صفتان متعلقتان بهذه السنّة، وهما: الترف والفسق، ونظراً لأهميتها ومركزيتها وخلاف المفسرين في توجيهها فسأتوسع في التعليق عليها.

اختلف المفسرون في دلالة قوله سبحانه: ﴿أَمَرۡنَا﴾ هل المقصود به الأمر أم التكثير أم التأمير؟ فهذه ثلاثة وجوه.

ثم إذا كان المقصود بها الأمْر، فهل هو الأمر الشرعي أم القدري؟ فهذان وجهان.

- فإذا كان المقصودُ الأمرَ الشرعي فمعنى الآية: أمرنا مترفيها بالطاعة فعصوا وفسقوا فيها.

- وإذا كان المقصود الأمر القدري فالمراد أن الله سلّط مترفيها قدراً ليفسقوا فيها.

فهذا مُحصّل الخلاف في الآية.

فأما تفسيرها بالتأمير أو بالتكثير، فقد ذهب إليه كثير من أئمة التفسير المتقدمين[١]، وهذان القولان يتّسقان مع قول من قال إنّ الأمر في الآية قدريّ، لأن التأمير والتكثير أمران محلهما القدر لا الشرع. وأما تفسيرها بالأمر -بصرف النظر أكان الأمر الشرعيّ أو القدريّ- فقد ذهب إليه بعض المتقدمين كذلك، ورجحه الإمام الطبري بعد ذكر الأقوال والقراءات في الآية، وذلك بقوله: (وأولى القراءات في ذلك عندي بالصواب قراءة من قرأ ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ بقصر الألف من أمرنا وتخفيف الميم منها، لإجماع الحجة من القرّاء على تصويبها دون غيرها. وإذا كان ذلك هو الأولى بالصواب بالقراءة، فأولى التأويلات به تأويل من تأوّله: أمَرنا أهلها بالطاعة فعصوا وفسقوا فيها، فحقّ عليهم القول؛ لأن الأغلب من معنى أمَرْنا: الأمر، الذي هو خلاف النهي دون غيره، وتوجيه معاني كلام الله جلّ ثناؤه إلى الأشهر الأعرف من معانيه، أولى ما وجد إليه سبيل من غيره)[٢]

فهذا ترجيح من الطبري ﵀ لأمرين: الأول: أن المقصود بـ﴿أَمَرْنَا﴾: الأمر الذي هو ضد النهي، وأن هذا الأمر شرعي لا قدري، وقد انتصر لذلك من

(١) راجع: موسوعة التفسير بالمأثور، عند هذه الآية.

(٢) تفسير الطبري: (١٤/ ٥٣٢).

المتأخرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ﵀ في كتابه أضواء البيان، فقال: (المعنى: أمرنا مترفيها بطاعة الله وتوحيده، وتصديق رسله واتباعهم فيما جاءوا به: ﴿فَفَسَقُوا۟﴾، أي: خرجوا عن طاعة أمر ربهم، وعصوه وكذبوا رسله ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾، أي وجب عليها الوعيد ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾، أي أهلكناها إهلاكا مستأصلا، وأكد فعل التدمير بمصدره للمبالغة في شدة الهلاك الواقع بهم، وهذا القول الذي هو الحق في هذه الآية تشهد له آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف:٢٨]. فتصريحه جل وعلا بأنه لا يأمر بالفحشاء دليل واضح على أن قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟﴾ [الإسراء:١٦]، أي: أمرناهم بالطاعة فعصوا، وليس المعنى أمرناهم بالفسق ففسقوا؛ لأن الله لا يأمر بالفحشاء.)[1] إلى آخر كلامه الذي أطال فيه ﵀، واستدلّ له وأكّد عليه.

ويُشكل على هذا التفسير مجموعة من الاعتراضات القوية والمعتبرة، والتي ذكرها الإمام ابن القيم -وهو ممن ينتصر لكون المراد بالأمر في الآية: الأمر القدري- فقال ﵀: (هذا أمر تقدير كوني لا أمر ديني شرعي، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، والمعنى: قضينا ذلك وقدرناه. وقالت طائفة: بل هو أمر ديني، والمعنى: أمرناهم بالطاعة فخالفونا وفسقوا.

والقول الأول أرجح؛ لوجوه:

أحدها: أن الإضمار على خلاف الأصل فلا يصار إليه إلا إذا لم يمكن تصحيح الكلام بدونه.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (٣/ ٥٧٣ - ٥٧٤) للشنقيطي.

الثاني: أن ذلك يستلزم إضمارين أحدهما أمرناهم بطاعتنا، الثاني فخالفونا أو عصونا ونحو ذلك.

الثالث: أن ما بعد الفاء في مثل هذا التركيب هو المأمور به نفسه كقولك: أمرته ففعل وأمرته فقام وأمرته فركب، لا يفهم المخاطب غير هذا.

الرابع: أنه سبحانه جعل سبب هلاك القرية: أَمْرَه المذكور، ومن المعلوم أن أمْره بالطاعة والتوحيد لا يصلح أن يكون سبب الهلاك، بل هو سبب للنجاة والفوز.

فإن قيل: أمْره بالطاعة مع الفسق هو سبب الهلاك؟

قيل: هذا يبطل بالوجه **الخامس**، وهو: أن هذا الأمر لا يختص بالمترفين بل هو سبحانه يأمر بطاعته واتّباع رسله المترفين وغيرهم؛ فلا يصح تخصيص الأمر بالطاعة بالمترفين.

ويوضحه الوجه **السادس**: أن الأمر لو كان بالطاعة لكان هو نفس إرسال رسله إليهم، ومعلوم أنه لا يحسن أن يقال: أرسلنا رسلنا إلى مترفيها ففسقوا فيها؛ فإن الإرسال لو كان إلى المترفين لقال من عداهم: نحن لم يرسل إلينا.

السابع: أن إرادة الله سبحانه لإهلاك القرية إنما يكون بعد إرسال الرسل إليهم وتكذيبهم وإلا فقبل ذلك هو لا يريد إهلاكهم لأنهم معذورون بغفلتهم وعدم بلوغ الرسالة إليهم، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [سورة الأنعام:٣١]

فإذا أرسل الرسل فكذبوهم أراد إهلاكها؛ فأمر رؤساءها ومترفيها أمراً كونيا قدريا لا شرعيا دينيا بالفسق في القرية؛ فاجتمع أهلها على تكذيبهم

وفسق رؤسائهم، فحينئذ جاءها أمر الله وحق عليها قوله بالإهلاك. ولا حاجة إلى تكلف تقدير أمرنا مترفيها فيها بالطاعة فعصونا وفسقوا فيها، بل الأمر هاهنا أمر تكوين وتقدير، لا أمر تشريع)[1].

وإلى هذا القول ذهب الشيخ ابن سعدي ﵀؛ فقال: «يخبر تعالى أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة ويستأصلها بالعذاب، أمر مترفيها أمرا قدريا؛ ففسقوا فيها واشتد طغيانهم، ﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي: كلمة العذاب التي لا مرد لها ﴿فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾»[2].

ولعلّ هذا القول هو الأرجح والله أعلم، وهو لا يتنافى مع تفسيرها بالتأمير أو التكثير، فيحتمل أن تكون الوجوه الثلاثة للآية صحيحة، والله أعلم.

ومما يزيد الأمر تأكيداً أن الله سبحانه ذكر ما يقارب هذا المعنى في موضع آخر، وهو قوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [سورة الأنعام:١٢٣] وقد بيّن الإمام ابن كثير ﵀ الارتباط بين الآيتين بقوله: (يقول تعالى: وكما جعلنا في قريتك -يا محمد- أكابر من المجرمين، ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله، وإلى مخالفتك وعداوتك، كذلك كانت الرسل من قبلك يبتلون بذلك، ثم تكون لهم العاقبة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾ [سورة الفرقان:٣١] وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [سورة الإسراء:١٦] قيل معناه: أمرناهم بالطاعات، فخالفوا، فدمرناهم. وقيل: أمرناهم أمرا قدريا، كما قال

(١) شفاء العليل: (٢/ ٣٨٠) فما بعدها باختصار، لابن القيم.

(٢) تفسير السعدي: (٤٥٥).

هاهنا: ﴿لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾)[١] فلاحظ قدر التوافق بين الآيتين، وهو كما أسلفت مما يرجح أن الأمر في الآية قدري لا شرعي.

وبقي سؤال، وهو: ما صورة تحقُّق هذا الأمر القدري للمترفين بالفسق؟

قال البقاعي ﷺ موضحاً ذلك: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ -الذين لهم الأمر والنهي-: بالفسق؛ أي: استدرجناهم بإدرار النعم؛ ودفع النقم على ما يعملون من المعاصي؛ الذي كان -بكونه سببا لبطرهم ومخالفتهم- كالأمر بالفسق؛ ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ بعدما أزال الرسول معاذيرهم بتبليغ الرسالة؛ كما قال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: على ألسنة الرسل؛ ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [سورة الأنعام:٤٤] الآية؛ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ [سورة الأنعام:١٢٣])[٢] فجعل تمثّل هذا الأمر في قضية الاستدراج، وهو صحيح، ولكن قد لا يكون هو التمثل الوحيد، فقد يكون تسليطهم القدري بتكثيرهم -كما هو وجه في تفسير الآية- أو بتأميرهم، والله أعلم.

هذا كله من حيث دلالة ﴿أَمَرْنَا﴾ وقد بينت الخلاف الواقع فيها، والراجح، وبقي الوقوف عند قوله سبحانه: ﴿مُتْرَفِيهَا﴾ وقوله: ﴿فَفَسَقُوا۟﴾ لبيان معنى الترف والفسق.

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٩٧).

(٢) ودفع هذا الكلام الشيخ الشنقيطي في الأضواء دفعاً شديداً -مع كون الكلام لا إشكال فيه على ترجيح كون الأمر قدرياً ولكن الشيخ يدفع هذا التفسير ويرجح الأمر الشرعي بقوة- فقال: (وبهذا التحقيق تعلم: أن ما زعمه الزمخشري في كشافه من أن معنى أمرنا مترفيها؛ أي أمرناهم بالفسق ففسقوا، وأن هذا مجاز تنزيلا لإسباغ النعم عليهم الموجب لبطرهم وكفرهم منزلة الأمر بذلك، كلام كله ظاهر السقوط والبطلان، وقد أوضح إبطاله أبو حيان في «البحر»، والرازي في تفسيره، مع أنه لا يشك منصف عارف في بطلانه.) أضواء البيان: (٣/ ٥٧٤).

فأما الترف فيقول الرازي ﵀: (وأما المترف: فمعناه في اللغة: المتنعم الذي قد أبطرته النعمة وسعة العيش)[(١)] وقال ابن كثير ﵀: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة.)[(٢)] وقال البقاعي ﵀: (وخص المترفين لأن غيرهم لهم تبع؛ ولأنهم أحق الناس بالشكر؛ وأولى بالانتقام عند الكفر، وقد جرت العادة بأن المترف عسر الانقياد؛ لا تكاد تسمح نفسه بأن يصير تابعا بعدما كان متبوعا؛ فعصوا؛ فتبعهم غيرهم؛ لأن الأصاغر تبع للأكابر؛ فأطبقوا على المعصية؛ فأهلكناهم)[(٣)]

وأما الفسق المقصود بالآية، فقال ابن الجوزي ﵀: «قَوْلُهُ تَعالى:﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾؛ أيْ: تَمَرَّدُوا في كُفْرِهِمْ؛ لِأنَّ الفِسْقَ في الكُفْرِ: الخُرُوجُ إلى أفْحَشِهِ»[(٤)] وقال البيضاوي في تفسيره للآية: (الفسق هو الخروج عن الطاعة والتمرد في العصيان)[(٥)] وقال الآلوسي:﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ أي: خرجوا عن الطاعة وتمردوا)[(٦)] وقال الشيخ ابن سعدي: (ففسقوا فيها واشتد طغيانهم)[(٧)]،وهذا يُؤكد ما سبق تقريره في صفة الإفساد في الأرض، وفي صفة الظلم عند قوله سبحانه:﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [سورة هود:١١٧] من أن الإهلاك لا يتعلق بأصل الشرك أو الكفر حتى ينضمّ إليه ما فيه زيادة في الفسق أو الجحود أو الطغيان ونحوها.

(١) تفسير الرازي: (٢٠/ ٣١٤).
(٢) تفسير ابن كثير: (٦/ ٤٦٠).
(٣) تفسير البقاعي: (١١/ ٣٩١-٣٩٢) باختصار.
(٤) زاد المسير في علم التفسير: (٣/ ١٦).
(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: (٣/ ٢٥١) للبيضاوي.
(٦) روح المعاني: (٨/ ٤١) للآلوسي.
(٧) تفسير السعدي: (٤٥٥).

٢- قوله ﷻ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة هود:١١٦].

هذه الآية في سورة هود، وسورة هود من أكثر السور التي ذُكِرَت فيها سنّة الإهلاك كما تقدم، وفي هذه الآية ذكر الله ﷻ أربع صفات لها ارتباط وتعلق بهذه السنة، وهي: الظلم، والفساد في الأرض، والترف، والإجرام، وكلها من الصفات التي أفردتُها بالدراسة هنا، ومن المهم الربط بين الآيات وبين موجبات سنة الإهلاك، فإن الذي لا ريب فيه أنه كلما زادت هذه الصفات في أمة أو قوم ازداد استحقاقهم للهلاك، والمتأمل للآيات يجد أن بعض الصفات من شأنها أنها تدعو إلى أخواتها من الصفات السيئة الموجبة للإهلاك، ومن أهمها صفة الترف، كما قال البقاعي ؒ: (ولما كان الـمُبطِر لهم نفس الترف، بُني للمفعول قوله: ﴿أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ فأبطرتهم النعمة حتى طغوا وتجبروا ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي: متصفين على سبيل الرسوخ بالإجرام، وهو قطع حبل الله على الدوام، فأهلكهم ربك لإجرامهم، ولولا ذلك لما فعل، فإن إهلاكهم على تقدير الانفكاك عن الإجرام يكون ظلما على ما يتعارفون.)[1].

والآية تدلّ على الإهلاك بقرينة: ﴿أَنجَيْنَا﴾، ومن جهة الارتباط العام بسياق الآيات قبلها وبعدها، كما قال ابن عاشور في التقاطة بديعة: (والتقدير: فحق عليهم هلاك المجرمين، وبذلك تهيأ المقام لقوله بعده: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ [سورة هود:١١٧])[2] وربط ابنُ عاشور كذلك بين بداية الآية: ﴿فَلَوْلَا

(١) تفسير البقاعي: (٩/ ٤٠٠).
(٢) التحرير والتنوير: (١٢/ ١٨٦) لابن عاشور.

كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [سورة هود:١١٦] وبين آية وردت قبل ذلك بموضع، وذلك في قوله ﷺ: (هذا قوي الاتصال بقوله تعالى:﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ [سورة هود:١٠٢] فيجوز أن يكون تفريعا عليه ويكون ما بينهما اعتراضا دعا إليه الانتقال الاستطرادي في معان متماسكة، والمعنى: فهلا كان في تلك الأمم أصحاب بقية من خير فنهوا قومهم عن الفساد؛ لـمَا حلّ بهم ما حل، وذلك إرشاد إلى وجوب النهي عن المنكر.)[١] فرحم الله ابن عاشور، وسبحان منزّل القرآن.

وهناك آيات أخرى متعلقة بإهلاك المترفين كذلك، لكن أطوي الحديث عنها للاختصار، واكتفاءً بالتفصيل الذي سبق في آية الإسراء، ومنها قوله ﷻ: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الأنبياء:١١-١٣].

الصفة الرابعة من الصفات الموجبة للهلاك: الإجرام:

ورد في كتاب الله تعالى ما يدل على ارتباط سنة الإهلاك بصفة الإجرام، وسأقف مع عدد من الآيات المتعلقة بهذه الصفة، وهي بمجموعها تدل على أن الإجرام يُطلق على أكثر من صورة من صور الكفر والمعصية، وسيستبين ذلك بعرض الآيات ونقل أهم ما قاله المفسرون حولها:

١- **قوله** ﷻ:﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة الأنعام:١٢٣]

(١) التحرير والتنوير: (١٢/ ١٨٢) لابن عاشور.

هذه الآية تدل من جهة صيغتها على الاستمرار والدوام، وهو معنى السنة، فهي مرتبطة بسنن الله تعالى في التدافع والإهلاك، كما قال البغوي ﵀: (قوله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ أي: كما أن فساق مكة أكابرها، كذلك جعلنا فساق كل قرية أكابرها، أي: عظماءها، جمع أكبر، مثل أفضل وأفاضل، وأسود وأساود، **وذلك سنة الله تعالى أنه جعل في كل قرية أتباع الرسل ضعفاءهم**، كما قال في قصة نوح ﵇: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [سورة الشعراء:١١١]، وجعل فساقهم أكابرهم، ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ وذلك أنهم أجلسوا على كل طريق من طرق مكة أربعة نفر ليصرفوا الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ، يقولون لكل من يقدم: إياك وهذا الرجل فإنه كاهن ساحر كذاب. ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ لأن وبال مكرهم يعود عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنه كذلك)[1].

وقال الطبري ﵀: (يقول جل ثناؤه: وكما زينا للكافرين ما كانوا يعملون، كذلك جعلنا بكل قرية عظماءَها مجرميها، يعني أهل الشرك بالله والمعصية ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ بغرور من القول أو بباطل من الفعل، بدين الله وأنبيائه ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ﴾ أي ما يحيق مكرهم ذلك، إلا بأنفسهم، لأن الله تعالى ذِكره مِن وراء عقوبتهم على صدّهم عن سبيله ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: لا يدرون ما قد أعدّ الله لهم من أليم عذابه، فهم في غيِّهم وعتوِّهم على الله يتمادَوْن)[2]

٢- قوله ﷻ في شأن قوم لوط: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة الأعراف:٨٤].

---

(١) تفسير البغوي: (٣/ ١٨٥).

(٢) تفسير الطبري: (٩/ ٥٣٧).

هذه الآية تدل على السنة الإلهية كذلك من جُملة ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ كما تقدمّ في قواعد فهم السنن، وفي هذه الآية يصف الله تعالى قوم لوط بالإجرام وأنه أهلكهم بسبب ذلك؛ فما هو هذا الإجرام المقصود؟ قال الرازي ﵀ في كلام بديع: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ والظاهر أن المراد من هذه العاقبة ما سبق ذكره وهو إنزال الحجر عليهم، ومن المجرمين الذين يعملون عمل قوم لوط؛ لأن ذلك هو المذكور السابق فينصرف إليه، فصار تقدير الآية: فانظر كيف أمطر الله الحجارة على من يعمل ذلك العمل المخصوص. وذكر الحكم عقيب الوصف المناسب يدل على كون ذلك الوصف علة لذلك الحكم، فهذه الآية تقتضي كون هذا الجرم المخصوص علة لحصول هذا الزاجر المخصوص، وإذا ظهرت العلة وجب أن يحصل هذا الحكم أينما حصلت هذه العلة)[1] وقال البقاعي: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ أي: آخر أمر ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، وأظهَرَ موضع الإضمار؛ تعليقاً للحكم بوصف القطع لما حقه الوصل؛ بوصل ما حقه القطع من فاحش المعصية، دليلا على أن الرجم جزاء من فعل هذا الفعل بشرطه؛ لأن الحكم يدور مع العلة)[2]

وقال ابن عاشور: (والمجرمون فاعلو الجريمة، وهي المعصية والسيئة، وهذا ظاهر في أن الله عاقبهم بذلك العقاب على هذه الفاحشة، وأن لوطا ﵇ أُرسل لهم لنهيهم عنها، لا لأنهم مشركون بالله، إذ لم يتعرض له في القرآن بخلاف ما قص عن الأمم الأخرى، لكن تمالؤهم على فعل الفاحشة واستحلالهم إياها يدل على أنهم لم يكونوا مؤمنين بالله، وبذلك يؤذن قوله

(١) تفسير الرازي: (١٤/ ٣١٢).

(٢) تفسير البقاعي: (٧/ ٤٥٨).

تعالى في سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [سورة التحريم:١٠]، فيكون إرسال لوط ﷺ بإنكار تلك الفاحشة ابتداء بتطهير نفوسهم، ثم يصف لهم الإيمان، إذ لا شك أن لوطا ﷺ بلغهم الرسالة عن الله تعالى)[١].

٣- **قوله سبحانه:** ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة الأنعام:١٤٧]. **وقوله سبحانه:** ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة يوسف:١١٠].

قال الطبري ﷺ: (وقوله ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، يقول: ولا تردُّ عقوبتنا وبطشنا بمن بطشنا به من أهل الكفر بنا وعن القوم الذين أجرموا، فكفروا بالله، وخالفوا رسله وما أتوهم به من عنده.)[٢] وقال في موضع آخر: (و«المجرمون» هم الذين أجرَموا فاكتسبوا الذنوب واجترحوا السيئات)[٣] وقال ابن الجوزي: (وفي المراد بالمجرمين قولان: أحدهما: المشركون. والثاني: المكذبون.)[٤] قال البقاعي: ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: «أي: القاطعين لما ينبغي وصله»[٥]، وقال الرازي: ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يعني الذين كذبوك فيما تقول. والله أعلم»[٦]

---

(١) التحرير والتنوير: (٨ أ/ ٢٣٨) لابن عاشور.
(٢) تفسير الطبري: (١٣/ ٤٠١).
(٣) تفسير الطبري: (٩/ ٦٤٨).
(٤) زاد المسير في علم التفسير: (٢/ ٩٠) لابن الجوزي.
(٥) تفسير البقاعي: (٩/ ٣١٠).
(٦) تفسير الرازي: (١٣/ ١٧٢).

٤- **قوله** ﷻ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [سورة الأحقاف:٢٥].

هذه الآية في وصف قوم عاد بالإجرام، وفيها دلالة على السنن بقوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي﴾ كما قال الطبري ﵀: (يقول تعالى ذِكره: كما جزينا عادا بكفرهم بالله من العقاب في عاجل الدنيا، فأهلكناهم بعذابنا، كذلك نجزي القوم الكافرين بالله من خلقنا، إذا تمادوا في غيهم وطَغَوا على ربهم.)[١] وقال ابن عاشور كذلك: (﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي مثل جزاء عاد نجزي القوم المجرمين، وهو تهديد لمشركي قريش وإنذار لهم وتوطئة لقوله: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ﴾ [الأحقاف:٢٦].)[٢]

وقال البقاعي ﵀ مبيناً معنى الإجرام: ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: العريقين في الإجرام الذين يقطعون ما حقه الوصل فيصلون ما حقه القطع، وذلك الجزاء هو الإهلاك على هذا الوجه الشنيع، فاحذروا أيها العرب مثل ذلك إن لم ترجعوا)[٣] وهذه عادة البقاعي في تفسير لفظ الإجرام في القرآن أن يفسره بقطع ما حقه الوصل.

وهناك آيات أخرى مرتبطة بصفة الإجرام وعلاقتها بالسنن الإلهية، أدع الحديث عنها لضيق المقام.

وختاما وبعد أن سبق بيان عدد من الصفات المرتبطة بسنة الإهلاك أود التنبيه إلى أن في القرآن كثيراً من الآيات التي تُستنبط منها صفات الـمُهلَكين

---

(١) تفسير الطبري: (٢١/ ١٥٩).

(٢) التحرير والتنوير: (٢٦/ ٥١) لابن عاشور.

(٣) تفسير البقاعي: (١١/ ٢٧).

والمعذبين غير ما سبق ذكره، غير أنه يضيق المقام عن ذكرها وتتبعها، وأشير إلى بعضها هنا على سبيل الإجمال والاختصار:

- فمنها، قوله ﷻ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [سورة فاطر:٤٢-٤٣]، وفيها أن النفور والاستكبار والمكر بعد رؤية الآيات والبينات من أهم أسباب الإهلاك وتحقُّق السنن.

- ومنها قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الأنعام:١٠]. وفيها أن الاستهزاء بالرسل من أسباب الهلاك وسوء العاقبة، كما قال الطبري ﷺ: (يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ، مسليًّا عنه بوعيده المستهزئين به عقوبةَ ما يلقى منهم من أذى الاستهزاء به، والاستخفاف في ذات الله: هَوِّنْ عليك، يا محمد، ما أنت لاقٍ من هؤلاء المستهزئين بك، المستخفِّين بحقك فيّ وفي طاعتي، وامضِ لما أمرتك به من الدُّعاء إلى توحيدي والإقرار بي والإذعان لطاعتي، فإنهم إن تمادوا في غيِّهم، وأصَرُّوا على المقام على كفرهم، نسلك بهم سبيلَ أسلافهم من سائر الأمم من غيرهم، من تعجيل النقمة لهم، وحلول المثلات بهم. فقد استهزأت أمم من قبلك برسلٍ أرسلتهم إليهم بمثل الذي أرسلتك به إلى قومك، وفعلوا مثل ما فعل قومُك بك ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، يعني بقوله: ﴿فَحَاقَ﴾، فنزل وأحاط بالذين هزئوا من رسلهم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، يقول: العذابُ الذي كانوا يهزؤون به،

وينكرون أن يكون واقعًا بهم على ما أنذرتهم رسلهم)[١].

- إلى غير ذلك من الآيات البيّنات، التي يطول المقام بتتبعها والوقوف عندها، غير أن فيما ذُكر هنا إشارة وبُلغة إلى غيره.

* * *

(١) تفسير الطبري: (٩/ ١٦٥ - ١٦٦).

رابعاً: علاقة هذه السنة بغيرها من السنن:

من الأمور المتحتمة في فقه السنن الإلهية: معرفة علاقة كل سنة بغيرها إن كان بينها تداخل واتصال، ومن ثم تحقيق النظر في السنة باستحضار مجموع ما اتصلت به من السنن لا بالنظر المجرد إلى كل سنة وحدها.

وعند النظر في هذه السنة نجد أن بينها وبين بعض السنن الأخرى تداخلاً واتصالاً، ومن أهم ما تتصل به من السنن:

أولاً: سنّة الإنذار والبلاغ:

وهي السنة القاضية بأن الله لا يهلك قرية أو أمة ولو كانت ظالمة مشركة حتى ينذرها، فلا يهلكها وهي غافلة بعيدة عن سماع الحق، وهذه القضية مهمة في فقه هذه السنة، ومن الأدلة عليها:

١- الآيات التي يصف الله فيها سبحانه الأقوام الذين أهلكهم بأنهم **مُنذَرون**، أي أنه سَبَقَ إهلاكَهم الإنذارُ، فأعرضوا، فاستحقوا العذاب، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الصافات:٧١-٧٤]، وقال عن قوم نوح عليه السلام: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [سورة يونس:٧٣]، قال الطبري رحمه الله: (يقول الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَٱنظُرْ﴾، يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ وهم الذين أنذرهم نوحٌ عقابَ الله على تكذيبهم إياه وعبادتهم الأصنام. يقول له جل ثناؤه: انظر ماذا أعقبهم تكذيبهم رسولَهم،

فإن عاقبة من كذَّبك من قومك إن تمادوا في كفرهم وطغيانهم على ربهم، نحو الذي كان من عاقبة قوم نوح حين كذبوه)[1].

وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ [سورة الصافات:١٧٧]، وقال عن قوم لوط -في موضعين-: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾.

٢- الآيات المتعددة التي يبين الله ﷻ فيها أنه لا يهلك القرى إلا بعد الإنذار، وأنه لا يأخذها إلا وهي ظالمة، وهي آيات واضحة صريحة تبيّن الـمُجمَلات المتعلقة بإهلاك الظالمين والمجرمين، ومن هذه الآيات قوله ﷻ: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۝٢٠٨ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٢٠٩﴾ [سورة الشعراء:٢٠٨-٢٠٩].

قال الطبري رحمه الله: (يقول: وما كنا ظالميهم في تعذيبناهم وإهلاكهم، لأنا إنما أهلكناهم، إذ عتوا علينا، وكفروا نعمتنا، وعبدوا غيرنا بعد الإعذار عليهم والإنذار، ومتابعة الحجج عليهم بأن ذلك لا ينبغي أن يفعلوه، فأبوا إلا التمادي في الغيّ)[2].

ومنها قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [سورة القصص:٥٩]

ومنها قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [سورة الأنعام:١٣١] قال الإمام الطبري رحمه الله: (قد يتّجه من التأويل في قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ وجهان:

---

(١) تفسير الطبري: (١٢/ ٢٣٦).

(٢) تفسير الطبري: (١٧/ ٦٥٢).

أحدهما: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ أي: بشرك مَنْ أشرك، وكفر مَنْ كفر من أهلها، كما قال لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة لقمان:١٣]، ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ يقول: لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم رسلا تنبههم على حجج الله عليهم، وتنذرهم عذاب الله يوم معادهم إليه، ولم يكن بالذي يأخذهم غَفْلة فيقولوا: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾.

والآخر: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ [سورة الأنعام:٣١]، يقول: لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرُّسل والآيات والعبر، فيظلمهم بذلك، والله غير ظلامٍ لعبيده.

قال أبو جعفر: وأولى القولين بالصواب عندي، القولُ الأول: أن يكون معناه: أن لم يكن ليهلكهم بشركهم، دون إرسال الرسل إليهم، والإعذار بينه وبينهم. وذلك أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾، عقيب قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي﴾، فكان في ذلك الدليل الواضحُ على أن نصَّ قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾، إنما هو: إنما فعلنا ذلك من أجل أنَّا لا نهلك القرى بغير تذكيرٍ وتنبيه.)[1].

فهذه آيات بيّنات محكمات في ارتباط سنّة الإهلاك بسنّة الإنذار والإبلاغ وإقامة الحجة.

(١) تفسير الطبري: (٩/ ٥٦٣).

ثانياً: سنّة الإمهال والاستدراج:

وهي السنة القاضية بأن الله سبحانه يمهل الظالمين ويُملي لهم ولا يعاجلهم بالعقوبة ولو أجرموا وأفسدوا، حتى إذا أخذهم لم يفلتهم، وهي سنة محكمة ذكرها الله في كتابه في مواضع متعددة، وهي مهمة في تفسير سنة الإهلاك، فإنها تقتضي أن هذا الإهلاك لا يكون سريعا ولا عاجلاً، بل يصحبه إمهال وإملاء واستدراج.

ومن الآيات المبيّنة لهذه السنة:

أ- قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام:٤٢-٤٥].

قال الطبري ﵀ في تفسيرها مبيّناً كونها سنّة إلهية ماضية، وكونها مرتبطة بالإنذار قبل ذلك، وموضحاً معنى الآيات ومفرداتها بما لا مزيد عليه:

(يقول تعالى ذِكره: متوعدًا لهؤلاء العادلين به الأصنام، ومحذرَهم أن يسلك بهم إن هم تمادوا في ضلالهم سبيل من سلك سبيلهم من الأمم قبلهم، في تعجيل الله عقوبته لهم في الدنيا، **ومخبرًا نبيه عن سنته في الذين خلوا قبلهم من الأمم على منهاجهم في تكذيب الرسل:**

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ﴾ يا محمد ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٖ﴾ يعني: إلى جماعات وقرون ﴿مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ﴾ يقول: فأمرناهم ونهيناهم، فكذبوا رسلنا، وخالفوا أمرنا ونهينا، فامتحناهم بالابتلاء ﴿بِٱلۡبَأۡسَآءِ﴾، وهي شدة الفقر والضيق في المعيشة ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ وهي الأسقام والعلل العارضة في الأجسام. ومعنى الكلام: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [سورة الأنعام:٤٢]، فلم يتضرعوا، ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ فهلاّ إذ جاء بأسنا هؤلاء الأمم المكذبة رسلَها، الذين لم يتضرعوا عند أخذِناهم بالبأساء والضراء﴿تَضَرَّعُواْ﴾ فاستكانوا لربهم، وخضعوا لطاعته، فيصرف ربهم عنهم بأسه، وهو عذابه.

﴿وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ يقول: ولكن أقاموا على تكذيبهم رسلهم، وأصرُّوا على ذلك، واستكبروا عن أمر ربهم، استهانةً بعقاب الله، واستخفافًا بعذابه، وقساوةَ قلب منهم. ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، يقول: وحسّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون من الأعمال التي يكرهها الله ويسخطها منهم.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾، فلما تركوا العمل بما أمرناهم به على ألسن رسلنا،﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾، يقول: بدلنا مكان البأساء الرخاء والسعة في العيش، ومكان الضراء الصحة والسلامة في الأبدان والأجسام، استدراجًا منَّا لهم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾، يقول: حتى إذا فرح هؤلاء المكذبون رسلهم بفتحنا عليهم أبواب السعة في المعيشة، والصحة في الأجسام،﴿أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ﴾، أتيناهم بالعذاب فجأة، وهم غارّون لا يشعرون أن ذلك كائن، ولا هو بهم حالّ،﴿فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾، فإنهم هالكون، منقطعة حججهم، نادمون على ما سلف منهم من تكذيبهم رسلهم،﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ﴾، فاستؤصل

القوم الذين عَتَوا على ربهم، وكذّبوا رسله، وخالفوا أمره، عن آخرهم، فلم يترك منهم أحد إلا أهلك بغتةً إذ جاءهم عذاب الله.)(١)

ب- ومن الآيات المبينة لسنة الاستدراج كذلك، قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥﴾ [الأعراف:٩٤-٩٥].

وهذه الآية تبيّن أن الإهلاك قد يتأخر إلى زمن الأبناء أو الأحفاد، لأنهم قالوا: ﴿قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا﴾.

ثالثاً: سنة عدم قبول التوبة عند نزول العذاب الدنيوي على الكفار:

وهي سنة محكمة في كتاب الله تعالى، وقد ذكرها الله بلفظ السنة صريحاً، فقال سبحانه: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٥﴾ [سورة غافر:٨٥]، فهذه سنة مرتبطة بسنة الإهلاك، وفيها أنّ الله إذا أوقع العذاب بأمة من الأمم فإنه لا يقبل منها التوبة حين تعاين العذاب ويحلّ بها.

ومما يجدر التنبيه إليه هنا، أنّ الإهلاك منه ما هو استئصالي عام، ومنه ما هو جزئي بالأمراض والأسقام وتسليط المؤمنين ونحو ذلك كما تقدم، وسنة عدم قبول التوبة متعلقة بالعذاب الاستئصالي لا الجزئي الذي يرجع بسببه من ينجو، وذلك كما قال ابن عاشور ﵀: «هَذا حُكْمُ اللهِ في البَأْسِ بِمَعْنى

(١) تفسير الطبري: (٩/ ٢٤٢) فما بعدها باختصار كبير.

العِقابِ الخارِقِ لِلْعادةِ والَّذِي هو آيةٌ بيِّنةٌ، فأمّا البأسُ الَّذِي هو مُعْتادٌ والَّذِي هو آيةٌ خَفِيَّةٌ مِثْلُ عذابِ بأسِ السَّيْفِ الَّذِي نَصَرَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ يَوْمَ بَدْرٍ ويَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَإِنَّ مَن يُؤْمِنُ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ مِثْلَ أَبِي سُفْيانَ بْنِ حَرْبٍ حِينَ رَأى جَيْشَ الفَتْحِ، أَوْ بَعْدَ أَنْ يَنْجُوَ مِنهُ مِثْلَ إيمانِ قُرَيْشٍ يَوْمَ الفَتْحِ بَعْدَ رَفْعِ السَّيْفِ عَنْهم، فَإِيمانُهُ كامِلٌ مِثْلَ إيمانِ خالِدِ بْنِ الوَلِيدِ، وأَبِي سُفْيانَ بْنِ الحارِثِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وعَبْدِ اللهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ بَعْدَ ارْتِدادِهِ، ووَجْهُ عَدَمِ قَبُولِ الإيمانِ عِنْدَ حُلُولِ عَذابِ الِاسْتِئْصالِ وقَبُولِ الإيمانِ عِنْدَ نُزُولِ بَأْسِ السَّيْفِ أَنَّ عَذابَ الِاسْتِئْصالِ مُشارَفَةٌ لِلْهَلاكِ والخُرُوجِ مِن عالَمِ الدُّنْيا فَإِيقاعُ الإيمانِ عِنْدَهُ لا يَحْصُلُ المَقْصِدُ مِن إيجابِ الإيمانِ وهو أَنْ يَكُونَ المُؤْمِنُونَ حِزْبًا وأَنْصارًا لِدِينِهِ وأَنْصارًا لِرُسُلِهِ، وماذا يُغْنِي إيمانُ قَوْمٍ لَمْ يَبْقَ فِيهِمْ إلّا رَمَقٌ ضَعِيفٌ مِن حَياةٍ، فَإِيمانُهم حِينَئِذٍ بِمَنزِلَةِ اعْتِرافِ أَهْلِ الحَشْرِ بِذُنُوبِهِمْ ولَيْسَتْ ساعَةَ عَمَلٍ، قالَ تَعالى في شَأْنِ فِرْعَوْنَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٩١﴾ [يونس:٩٠-٩١]، أيْ فَلَمْ يَبْقَ وقْتٌ لِاسْتِدْراكِ عِصْيانِهِ وإفْسادِهِ، وقالَ تَعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗا﴾ [الأنعام:١٥٨] فَأَشارَ قَوْلُهُ: ﴿أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗا﴾ إلى حِكْمَةِ عَدَمِ انْتِفاعِ أَحَدٍ بِإيمانِهِ ساعَتَئِذٍ. وإنَّما كانَ ما حَلَّ بِقَوْمِ يُونُسَ حالًا وسِيطًا بَيْنَ ظُهُورِ البَأْسِ وبَيْنَ الشُّعُورِ بِهِ عِنْدَ ظُهُورِ عَلاقاتِهِ كَما بَيَّنّاهُ في سُورَةِ يُونُسَ»[1].

---

(١) التحرير والتنوير: (٢٤/ ٢٢٣).

خامساً: مقاصد سنّة الإهلاك وأخْذ المجرمين، والحِكَم المتعلقة بها:

بعد التأمل في الحِكَم والمقاصد المتعلقة بسنّة إهلاك الظالمين وأخْذ المجرمين تبين لي أن لها حكماً كثيرة، منها:

أولاً: دفع الفساد عن الأرض:

إن من سنة الله ﷻ أن يسلط المصلحين على المفسدين كي لا تفسد الأرض، فيدفع الله الباطل بالحق، والشر بالخير، ولولا ذلك لاختلّ نظام كل شيء في هذه الأرض؛ وهذا من حكمة الله تعالى في تشريع الجهاد في سبيله، كما قال ﷻ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [سورة البقرة:٢٥١] فهذه الآية -وإن كانت قد تشمل بعموم لفظها الناس- إلا أن الأصل فيها أنها في المؤمنين يسلطهم الله على الكفار المفسدين، كما قال الطبري في تفسيرها: (يعني تعالى ذكره بذلك: ولولا أنّ الله يدفع ببعض الناس -وهم أهل الطاعة له والإيمان به- بعضًا، وهم أهلُ المعصية لله والشرك به؛ ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾، يعني: لهلك أهلها بعقوبة الله إياهم، ففسدت بذلك الأرض، ولكن الله ذو منٍّ على خلقه وتطوُّلٍ عليهم، بدفعه بالبَرِّ من خلقه عن الفاجر، وبالمطيع عن العاصي منهم، وبالمؤمن عن الكافر.)[1] وقال السعدي ﵀: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: لولا أنه يدفع بمن يقاتل في سبيله كيد الفجار وتكالب الكفار لفسدت الأرض باستيلاء الكفار عليها وإقامتهم شعائر الكفر ومنعهم من

(١) تفسير الطبري: (٤/ ٥١٤ – ٥١٥) باختصار.

عبادة الله تعالى، وإظهار دينه﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ حيث شرع لهم الجهاد الذي فيه سعادتهم والمدافعة عنهم ومكنهم من الأرض بأسباب يعلمونها، وأسباب لا يعلمونها)[١]

ثانياً: انتصار الله لأوليائه، وانتقامه من أعدائه، على مقتضى أسمائه وصفاته:

سُنن الله تعالى متعلقة في الأصل بأسمائه وصفاته وحكمته وقدره، ومن المهم في فقه السنن أن تُفقَه الأسماء الحسنى التي يذكرها الله تعالى في سياق بيان سنته في نصر المؤمنين وإهلاك المجرمين، فهو سبحانه القوي العزيز المنتقم الجبار المتكبر القهار، فتأتي سنّته على مقتضى أسمائه وصفاته، فيفهم المؤمن شيئاً من الحِكَم من هذه السنن كونها من مقتضى أسماء الله وصفاته.

وهذه بعض الأمثلة التي يبين الله فيها أن إهلاكه للمجرمين كان انتقاماً منه لأنه عزيز ذو انتقام وهذا من صفاته سبحانه:

١- قوله ﷻ عن قوم فرعون:

﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ۝٥٤ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥٥﴾ [سورة الزخرف:٥٤-٥٥]. ومعنى «آسفونا»: أغضبونا، وهذا يبيّن أنّ أخْذ الله المجرمين متعلق بصفاته سبحانه.

٢- قوله ﷻ:﴿ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ [سورة إبراهيم:٤٧] وهذا الوعد عند كثير من المفسرين: وعد في الدنيا، كما

(١) تفسير السعدي: (١٠٨).

قال الشيخ ابن سعدي رحمه الله مبيناً ارتباط ذلك بالسنن الربانية: (يقول تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ بنجاتهم ونجاة أتباعهم وسعادتهم وإهلاك أعدائهم وخذلانهم في الدنيا وعقابهم في الآخرة، فهذا لا بد من وقوعه لأنه، وعد به الصادق قولا على ألسنة أصدق خلقه وهم الرسل، وهذا أعلى ما يكون من الأخبار، خصوصا وهو مطابق للحكمة الإلهية، والسنن الربانية، وللعقول الصحيحة، والله تعالى لا يعجزه شيء فإنه ﴿عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾)[1].

وقال البقاعي رحمه الله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي الذي له الكمال كله، فإن من ظن ذلك كان ناقص العقل ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ في أنه يعز أولياءه ويذل أعداءه ويهلكهم بظلمهم، ويسكن أولياءه الأرض من بعدهم؛ ثم علل ذلك بقوله - مؤكدا لأن كثرة المخالفين وقوتهم على تمادي الأيام تعرض السامع للإنكار- :﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ أي ذا الجلال والإكرام ﴿عَزِيزٌ﴾ أي يقدر ولا يقدر عليه ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ممن يخالف أمره)[2].

٣- قوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الروم:٤٧]. بيّن الله عز وجل انتقامه من المجرمين وبيّن ما أوجبه على نفسه من نصر المؤمنين، كما قال الطبري رحمه الله في تفسير الآية: (يقول تعالى ذكره مسليا نبيه ﷺ، فيما يلقى من قومه من الأذى فيه بما لقي من قبله من رسله من قومهم، **ومعلمه سنته فيهم**، وفي قومهم، وأنه سالك به وبقومه **سنته فيهم**، وفي أممهم: ولقد أرسلنا يا محمد من قبلك رسلا إلى قومهم الكفرة، كما أرسلناك إلى قومك العابدي

(١) تفسير السعدي: (٤٢٨).
(٢) تفسير البقاعي: (١٠/ ٤٣٨).

الأوثان من دون الله ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ يعني: بالواضحات من الحجج على صدقهم، وأنهم لله رسل، كما جئت أنت قومك بالبينات فكذّبوهم، كما كذّبك قومك، وردّوا عليهم ما جاءوهم به من عند الله، كما ردّوا عليك ما جئتهم به من عند ربك،﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ﴾ يقول: فانتقمنا من الذين أجرموا الآثام، واكتسبوا السيئات من قومهم، ونحن فاعلو ذلك كذلك بمجرمي قومك،﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يقول: ونجّينا الذين آمنوا بالله وصدّقوا رسله، إذ جاءهم بأسنا، وكذلك نفعل بك وبمن آمن بك من قومك،﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على الكافرين، ونحن ناصروك ومن آمن بك على مَن كفر بك، ومظفروك بهم)[(١)].

ثالثاً: كبْتُ المكذبين المستكبرين، وإذلالهم، وكسر شوكتهم، وإذاقتهم العذاب في الدنيا قبل الآخرة:

إن من الحكم الإلهية في تقدير السنن المتعلقة بنصر أوليائه على أعدائهم ما ذكره سبحانه في قوله: ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾؛ وذلك أنّ هذه الآية متعلقة بنصر الله المؤمنين يوم بدر، وأنه سبحانه قدّر ذلك ليعذب المشركين ويخزيهم ويكبتهم، كما قال الطبري ﷺ: (فتأويل الكلام: ولقد نصركم الله ببدر؛ ليهلك فريقًا من الكفار بالسيف، أو يخزيهم بخيبتهم مما طمعوا فيه من الظفر ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾، يقول: فيرجعوا عنكم خائبين، لم يصيبوا منكم شيئًا مما رجوا أن ينالوه منكم)[(٢)].

(١) تفسير الطبري: (١٨/ ٥١٨ – ٥١٩).
(٢) تفسير الطبري: (٦/ ٤١).

رابعاً: شفاء صدور المؤمنين:

إن من حِكَم تقدير الله لسنة أخذ المجرمين بأيدي عباده المجاهدين: شفاء صدور المؤمنين، كما قال الله ﷻ: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡ﴾ [سورة التوبة:١٤-١٥]، قال ابن كثير ؒ: (ثم قال تعالى عزيمةً على المؤمنين، وبيانًا لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ وهذا عام في المؤمنين كلهم.)[١]

خامساً: توريث الصالحين أرض المفسدين الظالمين:

إن من سنن الله تعالى: أن يورث عباده الصالحين القائمين بدينه أرض الظالمين المجرمين بعد أن يُهلكهم، فمن الحكمة في الإهلاك: تحقيق سنة الوراثة، قال ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤﴾ [سورة إبراهيم:١٣-١٤].

قال الطبري ؒ: (وقوله: ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾، هذا وعد من الله من وعد من أنبيائه النصر على الكفرة به من قومه. يقول: لما تمادت أمم الرسل في الكفر، وتوعدوا رسلهم بالوقوع بهم، أوحى الله إليهم بإهلاك من كفر بهم من أممهم ووعدهم النصر. وكل ذلك كان من الله وعيدا وتهديدا لمشركي قوم نبينا محمد ﷺ على كفرهم به، وجرأتهم على نبيه، وتثبيتا لمحمد ﷺ،

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ١٠٤).

وأمرا له بالصبر على ما لقي من المكروه فيه من مشركي قومه، كما صبر من كان قبله من أولي العزم من رسله، ومعرفة أن عاقبة أمر من كفر به الهلاك، وعاقبته النصر عليهم، **سنة الله في الذين خلوا من قبل**، وقوله:﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾، يقول جل ثناؤه: هكذا فعلي لمن خاف مقامه بين يدي، وخاف وعيدي فاتقاني بطاعته، وتجنب سخطي، أنصره على ما أراد به سوءا وبغاه مكروها من أعدائي، أهلك عدوه وأخزيه، وأورثه أرضه ودياره.)[1].

ومن الأدلة كذلك قوله سبحانه: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [سورة الأعراف:١٣٦-١٣٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

سادساً: تذكير الظالمين وتنبيههم:

إن من رحمة الله سبحانه أنه يصيب الأمم المكذبة ببعض العذاب الجزئي ليذكرهم بقدرته، ويبين لهم خطأ عملهم وطريقهم، رحمةً بهم لعلهم يتذكرون ويتعظون، كما قال سبحانه:﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة السجدة:٢١] قال الطبري مبيّناً معنى العذاب الأدنى: (هو ما كان في الدنيا من بلاء أصابهم، إما شدّة من مجاعة، أو قتل، أو مصائب يصابون بها، فكل ذلك من العذاب الأدنى، ولم يخصص الله تعالى ذكره، إذ وعدهم ذلك أن يعذّبهم بنوع من ذلك دون نوع، وقد عذّبهم بكل ذلك في

---

(١) تفسير الطبري: (١٣/ ٦١٣ – ٦١٤ – ٦١٥).

الدنيا بالقتل والجوع والشدائد والمصائب في الأموال، فأوفى لهم بما وعدهم)[١]

ثم قال ﷺ: (وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يقول: كي يرجعوا ويتوبوا بتعذيبهم العذاب الأدنى)[٢].

وهذا ما فعله الله سبحانه بفرعون وقومه حتى بعد أن رأوا الآيات وكذبوا بها وجحدوا، وبعد أن قتلوا وظلموا، لم يُعاجلهم سبحانه بالعذاب، بل عاقبهم بالعذاب الأدنى، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف:١٣٠]، قال ابن سعدي في تفسير الآية مبيناً سنة الله في ذلك: (**قال الله تعالى في بيان ما عامل به آل فرعون في هذه المدة الأخيرة، أنها على عادته وسنته في الأمم، أن يأخذهم بالبأساء والضراء، لعلهم يضرعون. الآيات: وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ أي: بالدهور والجدب، وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ أي: يتعظون أن ما حل بهم وأصابهم معاتبة من الله لهم، لعلهم يرجعون عن كفرهم، فلم ينجع فيهم ولا أفاد، بل استمروا على الظلم والفساد**)[٣].

سابعاً: إيجاد الآيات للاعتبار:

إن من الحكم الإلهية في تقدير العذاب في الدنيا على الأمم المستحقة لذلك، أن يجعل الله في هذا العذاب عبرة للناس، وآية لمن بعدهم، كما قال سبحانه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [سورة الرعد:٦]، وقال

---

(١) تفسير الطبري: (١٨/ ٦٣٢).
(٢) تفسير الطبري: (١٨/ ٦٣٣).
(٣) تفسير السعدي: (٣٠٠).

سبحانه: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [سورة آل عمران:١٣٧] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي يأمر الله تعالى فيها بأخذ العظة والنظر في عاقبة الأمم المكذبة.



سادساً: الثمرات المترتبة على الوعي بهذه السنة:

هذه السنة العظيمةُ لها شأن كبير في كتاب الله -كما مرّ معنا-، والوعيُ بها يفيد المؤمن كثيراً، ويحقق له عدداً من الثمرات المهمة، منها:

١- الصبر على الأذى الذي يناله من الأعداء؛ لأنه يعلم أنّ سنة المجرمين واحدة، وأنهم على مرّ التاريخ يفسدون في الأرض، ويعادون الحق، ويظلمون ويتجبرون ويمكرون ويستهزئون، وأن ذلك من أسباب هلاكهم.

٢- عدم استعجال الثمرة، ولزوم الصبر الطويل حتى يتحقق النصر، وذلك لإيمان من يعي هذه السنة بأن من أبرز سماتها: طول الأمد، لأنها مرتبطة بسنة الاستدراج والإملاء والإمهال، فلا يستعجل المؤمن النصر وإهلاك الأعداء.

٣- إحسان الظنّ بالله، وهذا من أعظم الثمرات المترتبة على فهم هذه السنّة الإلهية؛ وذلك لأن تسلط الكفار وتجبرهم واستمرار ظلمهم سببٌ -في العادة- للظنون السيئة، ولكنّ المؤمن إذا فهم عادة الله الدائمة الثابتة في التعامل مع أعدائه، وأنه لا يعاجلهم بالعقوبة، وأنه يملي لهم ويمهل، وأنه سيديل أولياءه بعد ذلك عليهم، وينصرهم ويمكن لهم ويجعل لهم العاقبة، فإنه يُحسن الظنّ بالله تعالى.

٤- التفاؤل والأمل وعدم اليأس والقنوط، وذلك أن المؤمن كلما رأى زيادة الظالمين في ظلمهم وإفسادهم وجبروتهم؛ فإنه يعلم قرب استحقاقهم للعقوبة الإلهية، فيتفاءل كلما اشتد ظلمهم.

٥- الالتفات إلى العمل الواجب وعدم القعود، وذلك أن المؤمن يعلم أنّ الثمرات ليست عليه، وأن سلطان المجرمين تحت سلطان رب العالمين، وأنه عليهم قادر، فيلتفت المؤمن إلى العمل المطلوب، سواء أكان الصبر أم الجهاد أم غير ذلك، بحسب المقتضى الشرعي.



سابعاً: تنزيل هذه السنّة على الواقع:

تقدم معنا أن من أهم الصفات الموجبة لسنة الإهلاك هي صفة: الإفساد في الأرض، وأنّها موجبة كذلك لسنّة التدافع.

وإذا تأملنا في واقعنا اليوم نجد أنه من أكثر الأزمنة تضمناً لمعنى الإفساد في الأرض على مرّ التاريخ، وذلك بصور وأنواع كثيرة تشمل جميع المعاني والصور للإفساد التي جاء ذكرها في القرآن عن مختلف الأقوام والأمم إلا أنها اجتمعت في زمان واحد وهو زماننا هذا، سواء من جهة الظلم والتسلط على الضعفاء بالقتل والتنكيل والتشريد والأسر ومنع الحقوق والتضييق بكافة الأشكال، أو من جهة الظلم المالي وأخذ أموال الناس بالباطل وتشريع ذلك في أنحاء العالم بالمعاملات المالية الظالمة، أو من جهة نشر الفجور والفسق والفواحش والشذوذ إلى درجة غير مسبوقة في التاريخ البشري وخدمة ذلك بكافة الوسائل الإعلامية والقانونية بل والإجبار على ذلك ومحاربة الفطرة والفضيلة، أو من جهة نشر الإلحاد والكفر والزندقة والنفاق ومحاربة الثوابت والأصول الإسلامية والتشكيك فيها، أو غير ذلك من صور الإفساد الكثيرة المطابقة لما بيّنه الله في القرآن عن المفسدين الذين أخذهم وأهلكهم.

ولأجل ذلك؛ فإنّ زماننا هذا من أولى الأزمنة بتحقق السنن الإلهية فيه، وليس بيننا وبين تمام تحققها إلاّ تكميل بعض الأسباب الموجبة لذلك؛ ومن أهمّ هذه الأسباب: وجود الحَمَلة الربانيين، والمصلحين المتبعين للأنبياء والرسل، العاملين بالإصلاح، والساعين لنصرة الدين ومدافعة الباطل، فوجود هؤلاء أهم مفتاح من مفاتيح تحقق السنن الإلهية؛ إذ إنّ عامة السنن

متعلقة بالتدافع بين الحق والباطل، فإذا وُجِد حَمَلة الباطل واجتمعت كلمتهم وكثر فسادهم فهنا نعلم أنَّ سنن الله لا بد أن تنزل، ولكن نزولها -أكثر ما يكون- إنما هو بتأييد حَمَلة الحق المقاومين لذلك الباطل والدافعين له، فتأتيهم سنّة الله في التأييد والمعية والنصر ثم التمكين، وفي سياق ذلك يعذّب الله المفسدين بأيديهم، ويخزيهم، ويقطع طرفاً منهم، ويكبتهم، فينقلبوا خائبين، وهذه هي عاقبة المجرمين.

وبناءً على ذلك كله؛ فإنّ من أعظم ما يُستَجْلَب به النصر للأمة اليوم: العملَ على صناعة المصلحين، ثم اشتغال هؤلاء المصلحين في مدافعة الباطل ومقاومته، والله يتولّى نصرهم، ويُعلي -سبحانه- كلمتهم، ويكبت أعداءهم، كما قال سبحانه: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [سورة المائدة:٢٣] فهذه سنته الماضية.

على أنّ مما ينبغي تحريره كذلك، أنّ وجود المصلحين الربانيين وإن كان من أهم شروط تحقق السنن الإلهية، إلا أنّ الله تعالى قد يدفع فساد بعض الأمم الظالمة بأمم ظالمة أخرى، فيسلط بعضها على بعض، ويكيد بذلك لعباده المؤمنين المستضعفين، وهذا يُؤخذ من عموم قوله ﷻ:﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة البقرة:٢٥١] وقد بيّن البقاعي ذلك بقوله:﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالى بعظمته وجلاله وعزته وكماله يكف بعض الناس ببعض، ويولي بعض الظالمين بعضا، وقد يؤيد الدين بالرجل الفاجر، على نظام دبره، وقانون أحكمه في الأزل؛ يكون سببا لكف القوي عن الضعيف؛ إبقاء لهذا الوجود على هذا النظام، إلى الحد الذي حده)[١].

(١) تفسير البقاعي: (٣/ ٤٤٠).

فدفْع الفساد المستحكم اليوم قد يكون -بتدبير الله تعالى- على ثلاثة طرق:

الأولى: دفعه بالمؤمنين الصادقين المصلحين، بالجهاد في سبيل الله، ومقاومة الباطل على مختلف المستويات العلمية والفكرية والإعلامية.

الثانية: دفعه بتسليط الظالمين على بعض.

الثالثة: دفعه بالابتلاءات والأزمات والكوارث التي يسلطها الله على بعض الأمم المفسدة، فيشغلها بأنفسها ويكف عاديتها.

على أن الطريق الأولى هي أعظم الطرق، وهي أن يدفع الله الفساد بالمؤمنين الصادقين المصلحين، وهي التي تتفق مع السنن الأخرى، وهي التي لا أشك في أنها ستتحقق في الأمة الإسلامية على المدى القريب، والتي ستتمثل في صور مدافعة عامة عظيمة شمولية، يعلي الله بها كلمته، وينصر بها دينه، فيعود بها الإسلام عزيزاً، ويُقمَع الظلمُ والجور والعدوان، ويعلو القسط والعدل والإيمان: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [سورة النور:٥٥]

قال الشيخ ابن سعدي رحمه الله عن هذه الآية: (ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح، فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله، وإنما يسلط عليهم الكفار والمنافقين، ويديلهم في بعض الأحيان، بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح.)[١].

(١) تفسير السعدي: (٥٧٣).

ومن الصور المتعلقة بتنزيل (سنة أخذ المفسدين في الأرض) على الواقع -كذلك-: أخْذ بني إسرائيل لإفسادهم في الأرض في هذا الزمن:

من المعلوم أن الله ﷻ بين في كتابه أن بني إسرائيل سيفسدون في الأرض مرتين وأنه سيسلط عليهم فيهما من يسومهم سوء العذاب، كما قال سبحانه: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [سورة الإسراء:٤-٥]. ثم توعدهم سبحانه -إجراءً لسنته- أنهم إذا عادوا إلى الإفساد عاد عليهم بالعذاب، فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ وهذا يبين ارتباط معنى سنة الإهلاك بمعنى الإفساد في الأرض ارتباطاً وثيقا، وبناء على ذلك فنحن نترقب سنته فيهم ووعده القاطع المتعلق بهم بسبب إفسادهم العظيم في الأرض الذي يقومون به اليوم.

وهذه الآيات التي ذكرها الله في سورة الإسراء عن إفساد بني إسرائيل في الأرض مرتين تحققت قبل بعثة النبي ﷺ كما هو قول عامّة المفسرين، وليس هناك حاجة إلى التكلف بإدخال إفسادهم الحاصل الآن في إحدى مرتي الإفساد التي ذكرها الله سبحانه عنهم خوفاً من فواتهم من العقاب، لأن الآية فيها معنى الاستمرار المتعلق بالسنن الربانية الثابتة، وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ وقد عادوا إلى الإفساد فسيعود الله عليهم بالعذاب بتسليط عباده عليهم، وقد حصل الإفساد الثالث في زمن النبي ﷺ -وبعضهم يرى أنه حصل منهم عودة إلى الإفساد الثالث قبل ذلك-، ثم ها نحن اليوم في الإفساد الرابع وهو من أعظم مرات الإفساد، ولذلك فقد يكون عذابهم هذه المرة بقدر طغيانهم وإفسادهم، فيكون أشد من المرات السابقة.

وهل سيتصل إفسادهم هذا حتى يصل إلى إهلاك رئيسهم المسيح الدجال على يدي نبيّ الله عيسى ابن مريم ﷺ فيكون كل ذلك ضمن إفسادهم هذا؟ الله أعلم، وقد يكون ذلك لبعض القرائن التي لا يسع بسطها في هذا الموضع، وهذا لا يعني أنهم لن يعذبوا على أيدي المؤمنين حتى ينزل عيسى عليه السلام، وإنما القصد أنها جولات ممتدة، وقد يؤخذون في بعضها أخذاً شديداً وربما يُطردون من فلسطين، لكنها لن تكون نهايتهم؛ إذْ إنهم سيخرجون مع الدجال بعد ذلك، ويقاتلون المسلمين معه، حتى تكون نهايتهم على يدي عيسى عليه السلام، فلا يفسدون بعدها، وهذا يشبه طريقة أخذهم بالعذاب في الإفساد الأول، فإنه لم يكن مرة واحدة، بل كان مرات متتالية كما قال ابن عاشور رحمه الله: (فالمرة الأولى: هي مجموع حوادث متسلسلة تسمى في التاريخ بالأسر البابلي، وهي غزوات (بختنصر) ملك بابل وآشور بلاد أورشليم، والغزو الأول كان سنة ٦٠٦ قبل المسيح، أسر جماعات كثيرة من اليهود، ويسمى الأسر الأول، ثم غزاهم أيضا غزوا يسمى الأسر الثاني، وهو أعظم من الأول، كان سنة ٥٩٨ قبل المسيح، وأسر ملك يهوذا، وجمعا غفيرا من الإسرائيليين، وأخذ الذهب الذي في هيكل سليمان، وما فيه من الآنية النفيسة. والأسر الثالث المبير سنة ٥٨٨ قبل المسيح غزاهم بختنصر وسبى كل شعب يهوذا، وأحرق هيكل سليمان، وبقيت أورشليم خرابا يبابا، ثم أعادوا تعميرها كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ وأما المرة الثانية فهي سلسلة غزوات الرومانيين بلاد أورشليم)[1].

(١) التحرير والتنوير: (١٥/ ٢٩ - ٣٠) لابن عاشور.

والمقصود أن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ متعلق بالسنن الإلهية، ومتصل بإفساد بني إسرائيل اليوم، ولا بد أن تحلّ عليهم هذه السنّة، كما قال الشنقيطي رحمه الله:

(لما بين جل وعلا أن بني إسرائيل قضى إليهم في الكتاب أنهم يفسدون في الأرض مرتين، وأنه إذا جاء وعد الأولى منهما: بعث عليهم عبادا له أولي بأس شديد، فاحتلوا بلادهم وعذبوهم. وأنه إذا جاء وعد المرة الآخرة: بعث عليهم قوما ليسوءوا وجوههم، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة، وليتبروا ما علوا تتبيرا. وبين أيضا: أنهم إن عادوا للإفساد المرة الثالثة فإنه جل وعلا يعود للانتقام منهم بتسليط أعدائهم عليهم، وذلك في قوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ ولم يبين هنا: هل عادوا للإفساد المرة الثالثة أو لا؟

ولكنه أشار في آيات أخر إلى أنهم عادوا للإفساد بتكذيب الرسول ﷺ، وكتم صفاته ونقض عهوده، ومظاهرة عدوه عليه، إلى غير ذلك من أفعالهم القبيحة. فعاد الله جل وعلا للانتقام منهم تصديقا لقوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ فسلط عليهم نبيه ﷺ والمسلمين، فجرى على بني قريظة، والنضير، وبني قينقاع وخيبر ما جرى من القتل والسبي والإجلاء، وضرب الجزية على من بقي منهم، وضرب الذلة والمسكنة.

فمن الآيات الدالة على أنهم عادوا للإفساد قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة البقرة:٨٩-٩٠].

وقوله: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ [سورة البقرة:١٠٠] الآية وقوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [سورة المائدة:١٣] الآية ونحو ذلك من الآيات.

ومن الآيات الدالة على أنه تعالى عاد للانتقام منهم، قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾ [سورة الحشر:٢-٤].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الأحزاب:٢٦-٢٧].

ونحو ذلك من الآيات)[1].

(١) أضواء البيان: (٣/ ٤٨٥ -٤٨٦) للشنقيطي.

وهذه الطريقة في التفسير هي الصحيحة المحكمة، والله أعلم، وقد اجتهد كثير من المعاصرين في تفسير الإفساد الثاني بالحاصل اليوم من اليهود، وأن وعد الآخرة المذكور في الآية لم يأتِ بعد، وهذا الاجتهاد فيه ما هو مقبول من حيث كونه تتسع له مساحة النظر والنقاش العلمي، وفيه ما هو مبالغ فيه ومرفوض، وليس هذا موضع نقاش هذه القضية كذلك.

ومن الصور المتعلقة بتنزيل «سنة أخذ المفسدين في الأرض» على المستقبل:

دفع الله فساد الأرض بالمهدي:

من المعلوم أن الله ﷻ سيبعث في نهاية هذه الأمة رجلاً من أهل بيت النبي ﷺ يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، كما ثبت عن النبي ﷺ ذلك في الأحاديث الجياد، من طريق أبي سعيد الخدري وعبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، فعن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا يَوْمٌ لَبَعَثَ اللهُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَمْلَؤُهَا عَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا**»[(١)]. وعن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (**لا تقوم الساعة حتى تمتلئ الأرض ظلماً وعدواناً**) قال: (**ثم يخرج رجل من عترتي، أو من أهل بيتي، مَن يملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلما وعدواناً**)[(٢)].

والتأمل في سياق هذا الوعد من الجهة السننية مهم جداً، وذلك أن الله ﷻ لا يترك الأرض للفساد العام الـمُطبق حتى يتداركها بدفع هذا الفساد وتحقيق شيء من الصلاح أو التمكين العام له، وقد يكون ذلك الصلاح بمقدار ما

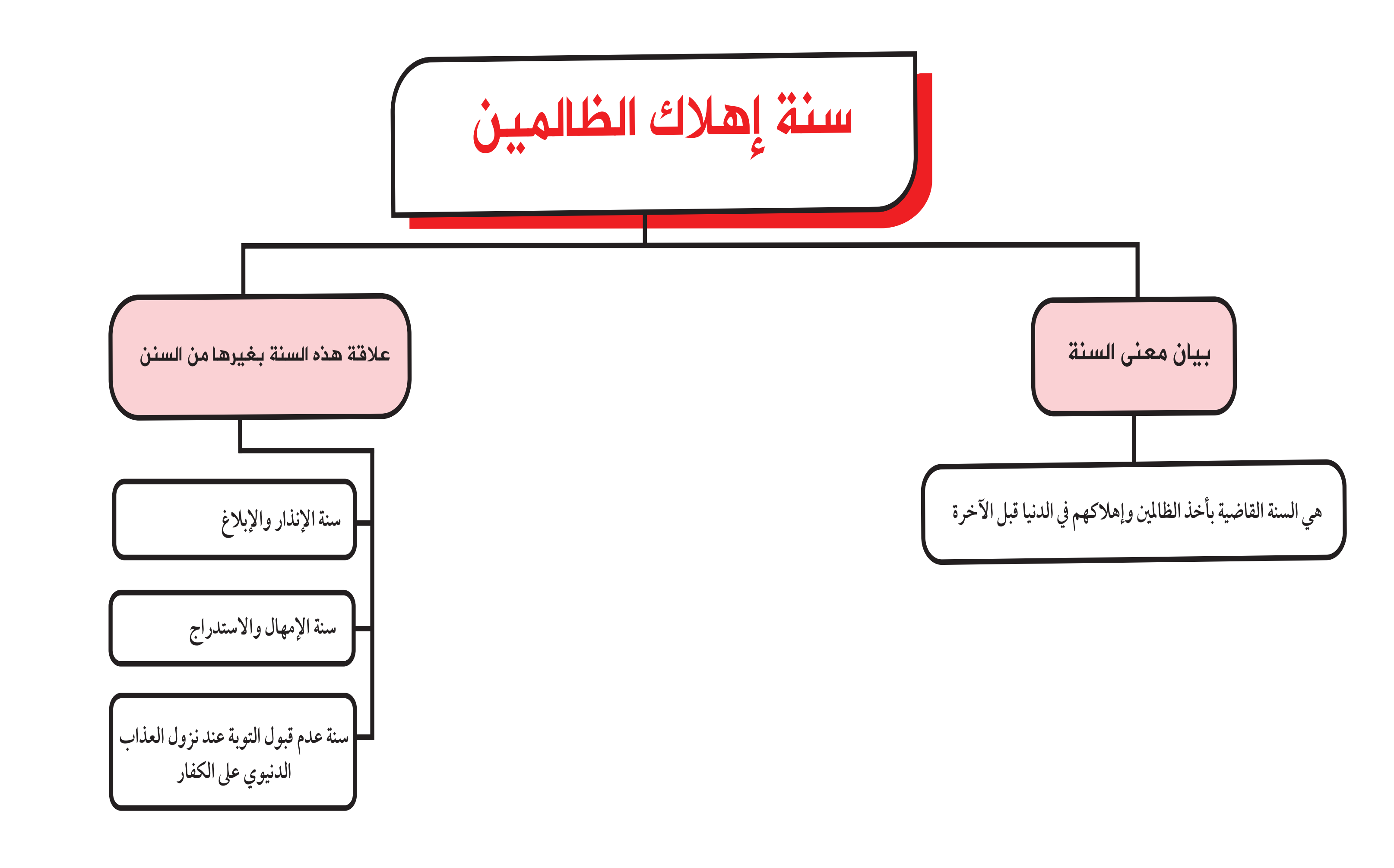
---

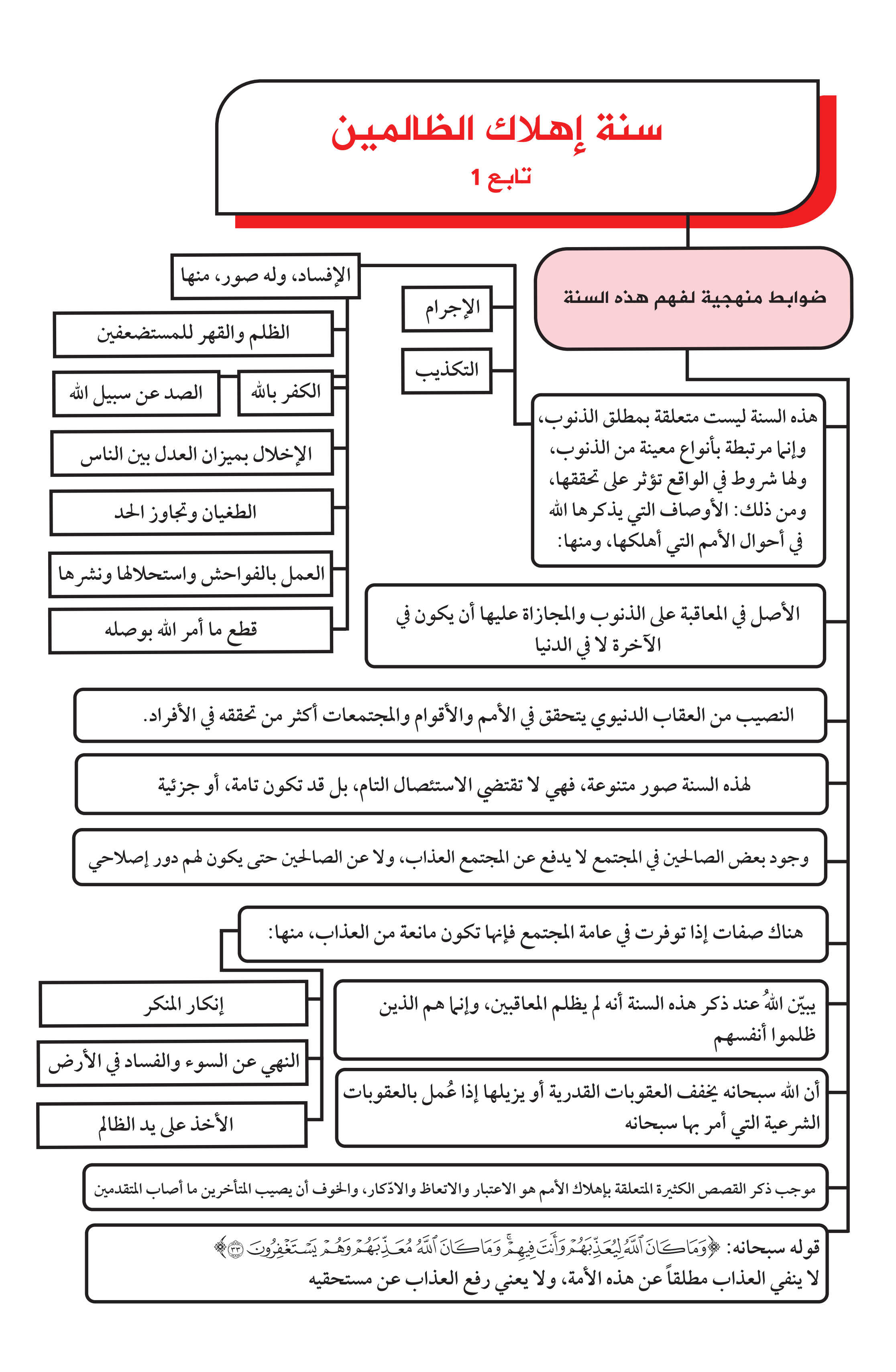
(١) أخرجه أبو داوود (٤٢٨٣) وهو من طريق فطر بن خليفة عن القاسم بن أبي بزة عن أبي الطفيل عن علي، وإسناده لا بأس به.

(٢) أخرجه أحمد (١١٣١٣)

سبقه من الظلم والفساد، فلمّا كان الزمن السابق للمهدي من أشد الأزمنة ظلماً وجوراً فإنّ الله سبحانه سيدفع به ذلك دفعاً عظيماً لتمتلئ به الأرض قسطاً وعدلاً. فسياق المهدي سياق سنني متسق مع حكمة الله في نظامه الذي قدره في الأرض، والله تعالى أعلم.




سنة إهلاك الظالمين
بيان معنى السنة
هي السنة القاضية بأخذ الظالمين وإهلاكهم في الدنيا قبل الآخرة
علاقة هذه السنة بغيرها من السنن
سنة الإنذار والإبلاغ
سنة الإمهال والاستدراج
سنة عدم قبول التوبة عند نزول العذاب الدنيوي على الكفار


سنة إهلاك الظالمين
تابع 1
ضوابط منهجية لفهم هذه السنة
هذه السنة ليست متعلقة بمطلق الذنوب، وإنما مرتبطة بأنواع معينة من الذنوب، ولها شروط في الواقع تؤثر على تحققها، ومن ذلك: الأوصاف التي يذكرها الله في أحوال الأمم التي أهلكها، ومنها:
الإجرام
التكذيب
الإفساد، وله صور، منها
الظلم والقهر للمستضعفين
الكفر بالله
الصد عن سبيل الله
الإخلال بميزان العدل بين الناس
الطغيان وتجاوز الحد
العمل بالفواحش واستحلالها ونشرها
قطع ما أمر الله بوصله
الأصل في المعاقبة على الذنوب والمجازاة عليها أن يكون في الآخرة لا في الدنيا
النصيب من العقاب الدنيوي يتحقق في الأمم والأقوام والمجتمعات أكثر من تحققه في الأفراد.
لهذه السنة صور متنوعة، فهي لا تقتضي الاستئصال التام، بل قد تكون تامة، أو جزئية
وجود بعض الصالحين في المجتمع لا يدفع عن المجتمع العذاب، ولا عن الصالحين حتى يكون لهم دور إصلاحي
هناك صفات إذا توفرت في عامة المجتمع فإنها تكون مانعة من العذاب، منها:
إنكار المنكر
النهي عن السوء والفساد في الأرض
الأخذ على يد الظالم
يبيّن اللهُ عند ذكر هذه السنة أنه لم يظلم المعاقبين، وإنما هم الذين ظلموا أنفسهم
أن الله سبحانه يخفف العقوبات القدرية أو يزيلها إذا عُمل بالعقوبات الشرعية التي أمر بها سبحانه
موجب ذكر القصص الكثيرة المتعلقة بإهلاك الأمم هو الاعتبار والاتعاظ والادّكار، والخوف أن يصيب المتأخرين ما أصاب المتقدمين
قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٣٣﴾
لا ينفي العذاب مطلقاً عن هذه الأمة، ولا يعني رفع العذاب عن مستحقيه

سنة إهلاك الظالمين

تابع 2

أدلة هذه السنة من الوحي

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا
يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾

﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ١١﴾

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾

﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ
وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨٦﴾

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٨
وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١١
فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾

﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٠٣﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ
أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤﴾

﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾

سنة إهلاك الظالمين

تابع 3

أدلة هذه السنة من الوحي

﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا
قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ١١٦﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ
وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ١٢٣﴾

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٨٤﴾

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا
فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٦٩﴾

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ
مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ٤٢ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ
فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣﴾

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾


سنة إهلاك الظالمين
تابع 4
الحِكَم والمقاصد من هذه السنّة
دفع الفساد عن الأرض
شفاء صدور المؤمنين
انتصار الله لأوليائه، وانتقامه من أعدائه على مقتضى أسمائه وصفاته
كبْتُ المكذبين المستكبرين، وإذلالهم، وكسر شوكتهم، وإذاقتهم العذاب في الدنيا قبل الآخرة
توريث الصالحين أرض المفسدين الظالمين
تذكير الظالمين وتنبيههم
إيجاد الآيات للاعتبار
الثمرات المترتبة على الوعي بهذه السنة
الصبر على الأذى الذي ينال المؤمن من الأعداء
عدم استعجال الثمرة
إحسان الظن بالله
التفاؤل والأمل وعدم اليأس والقنوط
الالتفات إلى العمل الواجب وعدم القعود
تنزيل هذه السنّة على الواقع
إذا كانت صفة الإفساد من الموجبات لسنة الإهلاك والتدافع، فلم يمر على التاريخ صور من الفساد كما في واقعنا؛ لذلك فهو من أولى الأزمنة بتحقق السنن الإلهية فيه
أعظم ما يُستجلب به النصر للأمة اليوم: العمل على صناعة المصلحين، ثم اشتغالهم بمدافعة الباطل
وإن كان وجود المصلحين الربانيين من أهم شروط تحقق السنن الإلهية؛ إلا أنّ الله تعالى قد يدفع فساد بعض الأمم الظالمة بأمم ظالمة أخرى فيسلط بعضها على بعض، ويكيد بذلك لعباده المؤمنين المستضعفين
دفع الفساد اليوم قد يكون على ثلاث طرق:
دفعه بالمؤمنين الصادقين المصلحين
دفعه بتسليط الظالمين على بعض
دفعه بالابتلاءات والأزمات والكوارث
من صور تنزيل سنة أخذ المفسدين في الأرض:
أخذ بني إسرائيل لإفسادهم في الأرض في هذا الزمن
دفع الله فساد الأرض بالمهدي

الخاتمة

أحمد الله تعالى أن منحني فرصة التفقه في هذا الباب الشريف: «باب السنن الإلهية» وأحمده سبحانه أن يسّر ما قدمته فيه من مجالس ومحاضرات، وعلى ما يسره من كتابة هذا الكتاب، وذلك في ظروف وأحوال لا يستقيم معها في العادة تأليف ولا تدريس، ولكن الله بفضله يسر وأعان، فله الحمد أولاً وآخراً. وكان من تمام النعمة أن جاءت هذه الدروس وهذا التأليف في وقت أحداث غزة، والتي لها ارتباط بكثير من المعاني المتعلقة بالسنن من جهة الابتلاء والتدافع والتمييز ثم النصر والتمكين إن شاء الله -ولو تأخر-، لكنّ هذه الأحداث فيها بداية خير لهذه الأمة لا أشك في ذلك إن شاء الله.

وأسأل الله أن يغفر لي ويرحمني، وأسأله أن يتقبل هذا الكتاب عنده، وأن ينفع به ويبارك فيه، وأن يجعله سبباً لانتفاع المصلحين به، القائمين على دينه، والداعين إليه، والمدافعين عن شريعته، والمجاهدين في سبيله.

اللهم صلّ على عبدك ورسولك محمد، وآته الوسيلة، وابعثه مقاماً الذي وعدتَه؛ إنك لا تخلف الميعاد.

والحمد لله رب العالمين

١٤٤٥/٤/٢٥

٢٠٢٣/١١/٩




المفكرة:

